لا تدمرني ... معك

أحمد فريد محمود

لا تـدمرنـــي .... معك

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : لا تدمرنى .. معك

المؤلــــف : أحمد فريد محمود

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

ت ، : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ٢٤٠١٧٤٣

فاكس : ٢٤٠١٧٤٤

التـــــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقـم الإيــداع : ٩٨/١٤٥٧

الترقيـم الدولى : I S B N

977-303-058-X

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سأغمض عينى .. حتى لا ترانى

ـ ١ ـ

فجأة .. وبلا مقدمات انعدمت الرؤية .. العيون تحدق مذعـورة والضباب الأسود يهجم كما لو كان مارداً من الجن .. الأصوات حبيسة والانفاس كالفحيح والطائرة تترنح وسط الغموض فى كبرياء جريح.. صدى الهلع فى القلوب يهز الأبدان .. حاولت إحدى السيدات الصراخ فكممها جارها، استطاع أحدهم أن يفلت من رقابة المضيفين وأخذ يدق بكلتا يديه على باب كابينه القائد فى هستريا. بدأت أنات الخوف تعلو، والطائرة ترتفع وتهبط كأنها تلفظ من صدرها الانفاس الأخيرة .. أو كأنها ترقص رقصة الموت.

ضغط الأستاذ فارس بكفه فوق يد زوجته فتحية .. حاول أن يحثها على التماسك.

صوت قائد الطائرة يبشرهم بالأمان.

.. لا شيء يدعو للخوف.

.. الطائرة تمر وسط زوبعة ضبابية.

الآذان تلتهم الكلمات فى خشوع .. والطائرة تهبط كأنها تسقط.

و.. فجأة بلا مقدمات بدأت النوافذ تمتص ضوء القمر، وبدأت العقول تستوعب الطمأنينة، والهمسات تهرول على الشفاه في همهمة شريدة.

لحظات قليلة .. تعددت بعدها ردود فعل الركاب. فسقط مغشياً عليه من سقط وصرخ من صرخ .. هلل آخرون في بلاهة .. تقيأت الحوامل وغيرهن من المدللات.. وضحك من ضحك .. وكان ممن غرق في الضحك الاستاذ فارس وزوجته فتحية التي سحبت يدها من كفه قائلة :

- في مثل تلك الظروف يجب التزام التعليمات .. بالمناسبة كنت أشعر بنبضات قلبك بين أصابعي.

ابتلع ضحكته مطعوناً في شجاعته :

- أبدا .. في الحقيقة كنت قلقا عليك ياعزيزتي.

جلجلت ضحكتها وسط هرج الأصوات الأخرى .. ثم ربتت على كتفه قائلة :

- أحقاً كنت تخشى علي يا فارس.

رمقها بنظرة متعالية وهو يجيبها :

- بالطبع ياحياتي .. أم كنت تظنين أنني أخشى على بدلتي الجديدة !

واشتركا فى ضحكة حاولا من خلالها امتصاص بعض من اضطرابهما.

الأستاذ فارس اقترب من الحلقة الخامسة من عمره ويبدو فى ريعان شبابه .. له قامة قصيرة ومنكبان عريضان .. ملامحه تعكس إحساساً بالصرامة وكثيراً من الحزم اكتسبها من خلال عمله بالتدريس .. مدرس إنجليزى . كان يعتز أعظم الاعتزاز بتلك الصفة وكثيراً ما كان ينهر ابنته أحلام إذا ما غفلت عن تنظيف اللوحة النحاسية المرفوعة على الباب الخارجى .. فهو دقيق فى كل شىء .. أمين على مسؤليات المهنة .. حريص على بيته وتلاميذه .. كريم الطباع ومحدود العلاقات .. عالمه الكبير يضم زوجته ووالده الذى يقيم معهم بالمنزل وابنته التى تتأهب للحصول على ليسانس إنجليزى.. وكانت فتحية متلائمة مع كثير من طباعه فهى تصغره بسنوات قليلة، وبينهما قصة كفاح طويلة .. ساهمت فى نسج الكثير من أحداثها .. فهى أيضاً عاملة، ولها مكانتها الاجتماعية كرئيسة قسم العلاقات العامة بإحدى الشركات الكبرى .. وتجاوباً مع مبادىء الأسرة كانت علاقتها بالعمل تنفصل تماماً بعودتها للمنزل .. هى جميلة .. كشجرة الياسمين تزداد نضجاً وعطراً كلما مرت بها السنين .. قوامها متماسك وشخصيتها جذابة ... لحديثها طلاوة وفى مقلتيها نضرة .. بكل تلك الصفات استطاعت أن تحول الدعابة إلى حقيقة .. الأمر لا يعدو أن يكون مجرد دعابة.

التفت أسرتهم ذات يوم .. كأى أسرة .. حول التليفزيون يتابعون حلقات المسابقة للتسلية ويتنافس الجميع على حلها .. حلقة بعد حلقة .. وعلى سبيل الدعاية أيضاً أرسلوا الحلول فى نهاية الحلقات.

وكانت المفاجأة .. تجاوز الحظ رصيد السابقة من الجوائز المتعددة .. السيار ة والثلاجة والفيديو .. والتليفزيون .. وتوقف عند تذكرتين لمدة شهر فى رحلة إلى أوروبا متضمنة كل التكاليف .. وتسللت الحيرة إلى الأسرة الصغيرة. التذاكر لا ترد .. والجد فى عمر لا يساعده على المغامرة .. وأحلام تشغلها دروسها وأمور أخرى .. بينما كل الظروف مهيأة للاستاذ فارس حيث كان قد بدأت بالفعل أجازته السنوية . وكذلك ليس بالعسير على زوجته أن تحصل على أجازة مماثلة .. تمنع فى بادىء الأمر.. طالبهم بطرد الفكرة .. قاوم كل الآراء .. و ... ولكنه لم يصمد كثيراً أمام إلحاح شريكة قلبة وحياته.

وانقلبت الدعابة إلى حقيقة .. ثلاثون يوماً من الانبهار والمتعة .. استغلا كل دقيقة فى الاستطلاع والتعايش مع كل ما يحيط بهما .. حاولاً بصدق ورغبة كبيرة أن ينفضا عن كاهلهما عناء سنوات طويلة من العمل المتواصل .. شعراً كأنهما فى حلم جميل لم يوقظهما منه إلا تلك اللحظات الرهيبة التى أحاطت بظروف الطائرة .. وبالرغم من هذا كانت النشوة تدغدغ مشاعرهما وهما يتحاوران فى سخرية عن أيهما كان خائفاً فى تلك اللحظات .. وكلاهما ينفى بشدة أى إحساس بالإضطراب.

فاجأته بضحكات متتالية ومتصلة .. تلفت حوله يبحث عن سبب لضحكها المفاجيء .. لم يجد شيئاً يثيرها إلى هذا الحد .. حاول أن يتساءل .. ولكنها لم تستطع التمالك .. بدأت ترتسم على شفتيه ابتسامة حائرة، كاد يضحك على ضحكها .. استطاعت أن توقف سيل القهقهات وهى تضع يدها على فمها .. ثم التفتت إليه قائلة :

– أسفة .. لم أتمالك نفسى ..فلقد تخيلت لو أن شيئاً حدث.. فماذا يكون فى الأمر.

اتسعت عيناه فى دهشة متسائلاً :

– أى شىء .. وما الذى تخيلته.

– تخيلت ابنة أختك ذكية لو وقفت أمام "الآلة الاوتوماتيك" لتسقط لها بعض الحلوى أو كوباً من الجيلاتى.

لم يبد تعجباً وهو يقول :

– وماذا فى الأمر ؟

عاودتها الرغبة فى الضحك وهى تجيبه :

– أكيد ستقف أمامها مطالبة بالمزيد كما تفعل مع الحاج عبده بائع الفول.

أنطلق ضاحكاً وهو يضرب كفاً بكف فى نشوة كبيرة .. ثم بدأ يزداد إحساسه بالضحك أكثر فأكثر حتى تلقفته نوبة من السعال

المفاجئ .. بينما فترت ابتسامة فتحية تدريجياً وهى تتابعة باستغراب فالأمر لا يدعو لكل هذا الضحك المتواصل .. فأشارت برأسها متسائلة، كأنها تحاول أن تشاركه فيما يدور بخلده .. فسارع بقوله كأنه لا يود أن تفوته تلك الفرصة.

– تذكرت خالك الشيخ حسن لو رآك وأنت تغطسين وتطفين فى مياه البحر بما يوهك القطعتين .. أو رآك بعض مرؤوسيك فى العمل.

لم تتقبل فكاهته بترحاب .. هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت :

– وما الغريب فى هذا .. ألم تر كيف كان مستر فاكو وهو يصطحب معه فى (الويك آند) كل موظفى وموظفات الشركة فى رحلة جميلة تذوب فيها كل الفوارق.

ضم شفتيه بقوة وهو يؤكد على كلامها بقوله :

– نعم عندك الحق .. إنهم إناس يعيشون بلا عقد.

لاحقته متهكمة :

– لا .. لاتتحدث عن العقد أرجوك .. فأنت وحدك عقدة كبيرة فى حجم الهرم.

– أنا .. !

سارعت وهى تومىء برأسها مؤكدة :

أجل أنت .. هل كنت تقبل مثل هذه التصرفات لو كانت لديك شركة كبرى .. هل عندك استعداد أن تفعل مثل مستر بيلى وهو يشترك فى لعبة جماعية مع تلاميذه بالمدرسة .. أو تسمح لإبنتنا أحلام أن تختار علاقاتها بحرية شخصية .. أو ..

قاطعها مقتضباً :

– وما دخل إبنتنا فى الموضوع .. إنها ..

ولكنه توقف عندما اقتربت مضيفة الطائرة منهما وهى تدفع أمامها بعربة المشروبات. وتناول منها كوبين من العصير ..مد يده بأحداهما إلى زوجته ورشف رشفة كبيرة من كوبه .. ثم استطرد قائلاً :

– إنها تشترك فى الجمعية الأدبية بالكلية وبالطبع لها علاقات .. ثم إنها لا تهوى أى مجالات أخرى .. وهى تحب دراستها ومشغولة بها.

ظهرت ابتسامة ساخرة فوق شفتيها وهى تطل من وراء النافذة إلى حيث الأفق المجهول وهمست كأنها تحدث الكون كله.

– أنت الذى تحب.

ثم التفتت إليه بحماس.

- يارجل .. الكلية أنت الذى أخترتهـا وصممت أن تتخصص فى قسم الإنجليزى بالذات .. مثلك تماماً .. وهى كانت تتمنى أن تلتحق بكلية الإعلام.

القى بالكوب الفارغ فى السلة المخصصة لذلك .. وأجابها بحماس أكبر :

- ولكنها تنجح بامتياز فى كل عام .. وهو دليل على حسن أختيارى.

وبدأت تزداد شعلة تراشق الاتهامات بينهما ... هى تذكرة بموقفه من أبنته عندما أبدت رغبتها فى الاشتراك مع زملائها فى رحلة إلى البحر الأحمر .. وهو يتهمها بحياتها المملة التى تسير على وتيرة واحدة دون تجديد .. فتعاود هى وتصفه بالرجعية وكيف كان يرفض كل دعوة توجه إليه من شركتها فى حفلاتها المتعددة لاستقبال كبار زوارها الاجانب، وكثيراً ما تخلفت هى أيضاً بالرغم من أنه فى صميم عملها .. فيثيرها باتهامه بإنها متقوقعة وتلك عادة أكتسبتها منذ طفولتها .. انفجرت ضاحكة وهى تردد :

- يا رجل ألا تخجل من نفسك .. أتذكر كيف كان موقفك يوم رأيت أحلام وهى تتحدث مع مدام هدى جارتنا من الشرفة .. اتذكر ثورتك العارمة على ابنتك لمجرد أن مدام هدى مطلقة شابة وتعيش بمفردها ..

ثم أخفت عينيها بكلتا يديها كأنها لا تود أن ترى منظرا يثير استياءها .. وأردفت :

- ياله من موقف .. لا أتصور سيل الاتهامات .. بأنها كذا وكذا .. وبالرغم من أنك لم تر شيئاً، ولم تسمع عنها ما يعيبها.

لاحقها متهكماً :

- لماذا كنت إذن تؤيدينني .. ثم لماذا لم تنشيء معها علاقة بصفتها جارتك ..

مضت لحظة صمت .. وهو يتأهب لسماعها .. ولكنها همهمت بكلمات غير واضحة .. وبدت مرتبكة كأنها لا تعرف كيف تجيبه.

وهنا أخذ يصفق بكلتا يديه فرحاً فى تهور، كأنه امسك عليها ما يخجلها، بدت على ملامحها حمرة واضحة وكأنها شعرت بالخجل فعلاً ووجدت نفسها تشاركه الضحك بقوة.

أحتسبت أنفاسها فجأة فى صمت متوتر. والطائرة تزحف بسرعة خارقة بعجلاتها على ارض المطار، تابعاً بنظرات متلاحقة أقتراب رؤية المبانى .. تناول كفها بحنان وهى تفسح له مجالاً أوسع للرؤية من النافذة .. بدأت الطائرة تهدىء من سرعتها .. وما كادت تثبت فى مكانها حتى انطلقا من جديد فى ضحكاتهما بلا ميرر كأنهما يصلان الحديث من جديد .. أو أنهما اتفقاً لأول مرة على أشياء كثيرة أهمها الضحك .. حتى ولو كان على انفسهما.

أشرابت الأيدى تلوح متسابقة .. كل الحشد يرحب بالقادميين على الطائرة .. الملامح بعيدة والأحاسيس متباينة.

ومن وسط الجمع تسللت أحلام بصعوبة إلى الوراء حيث يقف جدها منفرداً على مقربة، وهى تهلل فى فرح طفولى لا يتناسب مع سنوات عمرها الذى تجاوز العشرين باشهر قليلة.

- رأيتهما يا جدى .. رأيتهما.

وقبل أن يرد بحرف واحد استدارت هى عائدة إلى موقعها وتركته فى مكانه يقاوم ابتسامته العريضة وهو يتابع محاولاتها لاستعادة مكانها الأول فى الصدراة.

كان الجد أمين فارع القوام .. عريض الصدر .. شامخ الرأس .. فى عينيه بريق تتحدث به سبعون عاماً هى حصيلة عمره .. له شارب اشهب بلون شعره، يمسك بعصا طويلة من خشب الأبنوس تنتصب فوق نهايتها رأس قريبة الشبه من أبى الهول، نادراً ما يتركها من قبضته وهو لا يحتاج لعصاه بقدر اعتزازه بها .. وكثيراً ما كان يسترسل فى أحاديثه عن عظمة الفراعنة .. وقصة أبو الهول .. وكذلك العصا التى أهديت إليه منذ خمسين عاماً .. كان لحديثه هيبه ولشخصيته قوة تطغى على كل محدثية دون تكبر أوجبروت.

ومرة أخرى تظهر أحلام مسرعة وهى تحثه على التحرك.

– هيا يا جدى لنكون فى استقبالهما .. أنهما فى الطريق للبوابة الخارجية.

كان استقبالاً رائعاً .. تحيط به البهجة وأحاديث المرح .. اشترك معهم سائق سيارة الأجرة التى ستقلهم إلى منزلهم بمدينة المهندسين .. والأستاذ فارس يعدد مباهج الحياة فى أوروبا كالمسحور.. تحدث كثيراً عن الطبيعة الخلابة والمناخ النشط وحرية الإنسان وأرتفاع مستوى الدخل .. و ..

وأقحم السائق نفسه متسائلاً فى شغف :

– والمواصلات .

فيبهره الاستاذ فارس بكلامه عن السائقين وكيف يعيشون حياة كلها رفاهية وأنهم يستمتعون بحقوق عديدة .. فيقاطعه الرجل ضاحكاً:

– لكى تلتمسوا لنا العذر عندما نطالب بالمزيد .

ومن وسط الضحكات تنطلق زوجته فتحية وهى تثرثر بإعجاب يفوق الحد .. وهى تصف طبيعة العلاقات بعضها ببعض .. وكيف يعيش الفرد هناك بلا عقد أو تشنجات .. وعن الاستقلالية فى التصرفات .. والرحلات الجماعية وكسر قيود المظاهر الكاذبة .. ونظافة الطرقات والشواطىء.

ويتدخل الجد وهو يتطلع إلى الطريق إمامه :

- والمتاحف .. هل زرتما أحد المتاحف هناك .. يقولون أن بعض آثارنا فى حوزتهم.

وهنا التقى الزوجان فى نظرة غامضة كأنهما يخفيان سراً ثم إنفجرا بعدها فى ضحكة مشتركة سرعان ما توقفت فى حلقهما عندما التفت إليهما الجد فى نظرة حادة كالسيف .. كأنها قطعت ألسنتهم فجأة أو فصلت رأسهما المختالة .. ثم استدار يتابع الطريق والصمت يجثم على السيارة فى توتر مفاجىء.

بينما حلقت أحلام مع خيالها إلى واقع بعيد عن كل ما يحيط بها .. رأت نفسها تجرى وسط الأغصان المورقة بين أجمل زهور الدنيا .. تستلقى على رمال مرسى مطروح البيضاء .. تتابع غروب الشمس وهى تقف على باب الشالية برأس البر .. تنطلق بجوادها الأبيض تقطع صحراء الأهرامات .. تداعب أسماك الزينة وهى تسبح بجوار شاطىء البحر الأحمر .. تمسح بأصابعها الرقيقة سطح النيل العظيم وهى فى رحلتها إلى أسوان .. تشهد طقوس شروق الشمس والطيور تغرد لمشرقها .. تشارك فى أهازيج جمع القطن .. ترقب النجوم وهى تترقرق على أمواج الاسكندرية .. تستطلع قاهرتها من فوق قمة البرج .. تستنشق الياسمين والريحان .. تذوب مع كلمات الحب وأروع الألحان.

تخيلت كل هذا وهى برفقة حبها البرىء .. والوحيد .. فى رحلة الأمانى مع عمرو.

ولكنها استعادت وجودها فى سيارة الأجرة خشية أن يكتشف أحد أمرها.

فهى رقيقة كزهرة الياسمين .. ينبض الشباب فى قوامها الممشوق .. شعرها بلون الليل فى غيبة القمر .. عيناها تنافسان شفتيها فى الابتسام.

وقفت السيارة أمام منزلهم بمدينة المهندسيين.. تلفتت فتحية باندهاش كأنها ترى دنيا غير الدنيا.. وبدأ الاستاذ فارس فى حمل ما يمكن حمله من الحقائب. بينما أسرعت أحلام تبحث عن حارس المنزل لكى يعاون أباها، وما كادت تخطو خطوة واحدة إلى داخل البوابة حتى تسمرت فى مكانها برهة .. التقت وجها لوجه مع مدام هدى .. تجاوزتها وهى فى اضطرابها .. وفجأة .. أحست بزلزال يقوض كيانها الصغير، حيث باغتها صوت أبيها فى نبرة هادئة لم تعتد عليها .. قائلاً :

- مساء الخير ياهانم.

التفتت فى ذهول لتتأكد من كلماته .. فطوتها غيبوبة غامضة قبل أن تفيق من صدمتها حيث سارعت الأم قائلة :

ـ أهلاً هدى هانم.

وبذكاء كبير جمعت المرأة شتات ذهنها وهى تجيب :

- مساء الخير يا فارس بك .. مرحباً يا فتحية هانم .. حمد الله على سلامتكم جميعاً.

اتسعت ابتسامة فتحية وهى تقول متوددة :

- أرجو أن يكون بيننا لقاء قريب يا هدى هانم.

قاطعها زوجها فارس مؤكدا :

- بالتأكيد .. فنحن جيران.

انصرفت المرأة .. تابع ثلاثتهم صعود درجات السلم - والحقائب ترتمى فوق كل درجة بعد أخرى .. توقف الأستاذ فارس يلتقط أنفاسه، لستدار برأسه ليطمئن على أبيه، تعجب من ثبوته فى مكانة دون حراك .. استقبل نظرة بعيدة منه لم يستطع تحديد طبيعتها.. قال بصوت مرتفع :

- ألا تصعد يا أبى.

مضت لحظات ثقيلة قبل أن يحرك الجد ساكنا .. وبدأ يخطو بخطى متزنة فوق الدرج وهو يدق بعصاه على الأرض بقوة . كدقات طبول الحرب .. كأنها نذير بالخطر تحثهم على التحصن. أفكار عديده تجمعت فى خلده، شعر بخبرته الطويلة بأن هناك أمور قد طرأت على حياة ولدة وزوجته .. استعاد بذاكرته موقف فارس

القيم من المطلقة الشابة .. وكيف كانت غضبته الباطشة على ابنته، كذلك احتواه الاستياء من تودد فتحية المفاجيء لتلك السيدة .. استشعر أحاسيس كثيرة كان يعلم مصدرها ولكنه لم يكن يدرى سبباً لها .. أومعمد ألا يدرى.

سارت الأمور مع الأيام طبيعية .. لا جديد فى حياتهم يثير الانتباه .. دخلت أحلام محرابها الخاص منهمكة فى كتبها استعداداً للامتحانات .. والاستاذ فارس يقطع وقت أجازته بين المراجع والاستماع إلى نشرات الأخبار .. وعاد الجد إلى جلسته المفضلة وراء شرفة حجرته الخاصة، يجوب بنظرة نحو الأفق كأنه أحد علماء الفلك، أويغوص ببصره إلى أفرع الأشجار الكثيفة التى تحيط بالمنزل مجتراً ذكريات بعيدة .. ترحل به لأيام الطفولة وكيف كان ذلك المنزل يتوسط مساحات شاسعة من الفضاء وبعض الحقول .. ثم تنقله إلى شبابه وفترة عمله بالمحاماة .. وتارة أخرى يذوب مع روح زوجته الغالية التى بكاها سنوات طويلة بعد وفاتها، يذكر سعادتها العامرة وهما يشهدان احتفالات وفاء النيل وكيف كانت فرحتهما بمولودهما الأول والأخير فارس .. ومرافعاته العظيمة أمام المحاكم وكيف كان يكررها فى المساء على مسامع زوجته، التى كانت تحيطه بالانبهار والأعجاب كأنها تستمع إلى أسطورة من الأساطير، وفرحتهما بالزيارات الريفية وخيراتها .. وجلسات الأصدقاء السامرة التى قد تمتد ساعات طويلة بين مناقشاتهم السياسية أوالتفافهم حول

من يقرض الشعر أومن ينشده عن شعراء آخرين .. تمنى لو كانت رحلته تطول أكثر مع الذكريات لولا انتباهه إلى فتحية العائدة من عملها وهى تلوح إليه من أسفل.. بادلها ابتسامة من تحت شاربة الكثيف وهو يهز رأسه بسعادة.

دخلت الشقة وهى تستعيد أنفاسها متجاوزة حجرته وصاحت:

– كيف حالك ياعمى اليوم

سارع يجيبها فى رضاء :

– بخير .. بخير يا ابنتى

اندفعت إلى حجرة مكتب زوجها والبهجة تذوب بين جفنيها

– وأنت كيف حالك يا فارسى العظيم

أطلق ضحكة من قلبه وهو يردد :

– آه يا فتحية .. مثلك لن يفلت الشباب من يده أبداً

دنت منه وهى تداعب شعره بأصابعها :

– لا أحد يصدق أنك ستتم الخمسين الشهر القادم

ضرب بكفه على صدره .. قائلا فى حماس :

- ذلك هو السن الأمثل للنضج والرجولة .. ثم .. ألم ترى مستر "جاك" وهو يقطع ثلاثة كيلو مترات عدواً يومياً .. بالرغم من أنه تجاوز الستين ..

قاطعته ضاحكه وهى تجلس أمامه :

- هذا المستر جاك .. وليس المستر فارس

وقبل أن يعلق على كلامها. لاحقته قائلة :

- بالمناسبة .. توفيق بك يقيم حفلاً صغيراً اليوم بمنزله على شرف بعض رجال الأعمال الايطاليين.

هزت رأسها فى تعجب .. ثم استطردت :

- هذا الرجل شعلة من الذكاء .. سيربح فى تلك الصفقة مالا يقل عن نصف مليون جنيه.

شرد بذهنه لحظة .. وبدت على أساريره لمحات الدهشة ثم قال كأنه يحدث نفسه :

- حظوظ .. هؤلاء الناس يربحون حتى فى أوقات تسليتهم .. ما أعظم الأعمال الحرة .. أتعلمى يافتحية لقد ..

ولكنها تقاطعه وهى تنهض قائلة :

- دعك من الحظوظ الآن .. وقل لى ما رأيك ؟

أجابها وهو يزال فى شروده :

- رأيى فى ماذا ؟

- فى موضوع الحفل ياعزيزى .. ما رأيك لو تصحبنى .. وتأكد من أنك ستقضى وقتا ممتعاً.

ركزت نظرتها إليه قائلة فى تحفز :

- أم أنك ستعود إلى عادتك القديمة .. إلى الكسل والتقوقع

انتفض رافضاً :

- أبداً لن يحدث هذا .. ولكنى لا أعرف أحداً منهم سارعت تطمئنه وهى تجذبه من يده ليسير خلفها.

- ولا أنا .. فتلك المرة الأولى التى سأذهب فيها إلى منزل توفيق بك .. فانت تعلم أن علاقتى به فى العمل فقط بصفته رئيساً لمجلس الإدارة.

وفى المساء .. كان الأستاذ فارس يقدم خطوة ويفكر فى العودة بالأخرى. وهو يسير بجوار فتحية فى حديقة فيلا توفيق بك.

وفى الداخل نجح فارس فى أن يستوعب الصورة بنظرة واحدة .. الموسيقى تطغى على أحاديثهم .. بعضهم فى مجموعات .. والآخر يجلس منفرداً .. ورجل وامرأة فى حديث جانبى .. قدمته زوجته إلى صاحب الدعوة .. شعرت بالنشوة تدغدغ مشاعرها وهى تنصت

لمديح رئيسها أمام زوجها .. قدمهما توفيق بك للمجموعة، وكذلك لزوجته التى قطعت الحديث مع ضيوف زوجها ورحبت بها .. كانت رقيقة وجميلة .. لاحظ فارس السن الكبير بينها وبين زوجها .. عشرين عاماً على الأقل .. دقائق قليلة ذاب بعدها وسط المجموعات.. زوجته فتحية تتوسط مجموعة ثانية فى الجانب الآخر .. تحدث كثيراً .. لم يسمع حر فاً واحداً بالعربية .. حتى توفيق بك رحب بهما بكلمات إنجليزية .. تذكر عائلة جاك وسهراته معهم .. فجأة ارتفعت الموسيقى .. تجمع الكل وسط الصالة الكبيرة، كأنهم فى مظاهرة سياسية .. بدأوا يرقصون.. اتسعت ابتسامته وهو يأخذ كأساً مدته إليه إحدى المدعوات .. فرغ منه ولم يفرغ من رقصته معها .. أعجب برشاقتها بالرغم من تقاربها فى العمر مع زوجته .. ضحك من قلبه لرقصة مشتركة بين إمرأتين .. شعر بالاجهاد .. دار بعينه يبحث عن فتحية .. تعجب من قوة تحملها فهى تراقص شاباً فى عمر إبنتها.

توقفت الموسيقى وارتفعت الضحكات مختلطة مع الثرثرة .. جلس من جلس وخرج البعض يستنشق الهواء فى الحديقة .. اتجه إلى زوجته بخطوات منتشية .. ثلاث كؤوس متتالية أثقلت جفنيه .. أسرعت إليه مبتهجة.

- ما رأيك يا فارس .. ألست سعيداً.

تناول يدها وأجلسها بجواره على معقد قريب.

- أتعلمى يا فتحية .. لقد أحسست بالذنب لأننى حرمت نفسى وحرمتك من تلك السهرات الرائعة.

ربتت على كفه بحنان قائلة :

- لا تندم يا عزيزى فما أكثر تلك السهرات .. هى أسبوعة .. نحن نتعامل مع أغلب شركات العالم تقريباً.

ضحك فى إعياء :

- حتى ولو مرة فى الشهر .. يا تى‌تى

وكأنه وعد قطعته على نفسها .. تعددت الحفلات .. مرة فى فيلا توفيق بك ومرات فى كازينوهات ليلية .. بلا مصاريف مرهقة .. فالشركة تتحمل كل الأعباء. انتهت ابنتها أحلام من امتحاناتها . الإجازة لازالت فى منتصفها .. تورطوا فى دعوة بعض العملاء الفرنسيين على سبيل المجاملة .. ولكنهم قبلوها .. وانتقلت لأول مرة السهرة إلى منزلهم، أحس فارس بالاضطراب فى البداية .. ولكنه حاول أن يعتاد .. استطاعت فتحية أن تقنع هدى هانم لمشاركتهم . قبلت بعد إلحاح بشرط أن يقبلوا دعوتها .. كثرت معارفهم واختلطت علاقاتهما بعلاقات هدى هانم .. فاقت سعادتهما كل الحدود يوم لبى توفيق بك وزوجته إحدى الدعوات فى منزلهما، قرر على أثرها صرف مكافأة شهرية لفتحية لتغطية مصاريف العلاقات العامة وتفوقها فى عملها.

بعض العلاقات أتخذت شكلاً خاصاً .. لاصلة لها بالعمل .. دخلت المشروبات الروحية لأول مرة منزلهم .. انكسرت قيود الملل والرتابة .. انعكست الحياة الجديدة على تصرفات الجميع .. بدأ فارس يهتم كثيراً بمظهره، فكر فى نقص وزنه بعض الشىء .. واستطاعت أحلام أن تستقطب لنفسها علاقات جانبية تحت إشراف هدى التى باتت من أقرب صديقاتها، كل شىء بالمنزل نال منه التغيير .. ألوان الجدران .. وضع الأثاث فى محاولة لاتساع المكان، النتيجة هى الاستغناء عن حجرة المكتب .. استقرت الستائر فوق النوافذ ليل نهار، أمتلأت الثلاجة بالمعلبات واللحوم الباردة وما تحتاجه سهرات السمر .. فتحية تعود من عملها بخطوات متثائبة وجسد منهك القوى، وحلام تمضى أغلب أوقاتها مع هدى أما فى غرفتها أو فى شقة الأخرى، لم يكن هناك ما يشغلها .. الامتحانات انتهت وعمرو فى زيارة لبلدته.

الساعة تجاوزت السابعة مساء. والأستاذ فارس يغط فى نوم عميق ومزعج بينما، بدأت فتحية فى ثنى خصرها .. تمد أطراف أصابع يدها لتلامس قدميها وهى بجواره فى الفراش .. شعر بالبرودة بعد أن أنكشف عنه الغطاء، حاول أن يستعيده وهو مغلق الجفنين وكنها لحقت به وجذبته منه قائلة :

– ألم تكتفى بعد .. نومك استغرق ثلاث ساعات.

فرك عينيه بيدة وهو يحاول أن يتكىء :

- فى الحقيقة لم أكتفى .. ثم .. ثم دعينى أعوض قلة النوم.

قفزت من فوق الفراش فى وثبة لفتاة فى سن العشرين ورددت:

- انهض يا رجل .. يجب أن تستعد لاستقبال ضيوفنا.

نظر إليها منزعجاً قبل أن يقول :

- أى ضيوف .. ألم يكن موعدنا الخميس القادم .. باقى ثلاثة أيام .. كيف .

قاطعته وهى تقلب فى فساتينها داخل الدولاب :

- مسيو "ديلبالزو" وعائلته مضطرون للسفر بعد غد .. ثم أنتى أبلغت باقى المجموعة بما فيهم مستر "ريمون".

التفتت إليه متجهة نحوه بنظرة ناعمة :

- ولا تنس أن مستر ريمون قدم إلينا دعوة لقضاء عطلة نصف السنة فى لندن.

فجأة .. نقض على يدها وجذبها فى محاولة لدفنها بين ذراعيه.

امتزجت ضحكاتها بصراخها وهى تسعى للتخلص منه . أمطرها بقبلات عشوائية وهويقول لاهثاً :

- لم أنس يا عزيزتى .. لم أنس .

ولكنها تنجح فى الإفلات منه مبتعدة فى دلال قائلة :

- ليس الآن يا فارس.

وأختال فارس بنفسه وهو ينهض من فراشه .. كانت خطواته تدب على الأرض كأنه يتقدم كتيبة حربية، أو كأنه يلوح بسيفه من فوق جواده .. ثم اقترب منها تماماً :

- سأنتظر إلى ما بعد الحفل يا تىتى.

بدأت الأنوار تتلألأ فى أرجاء المنزل .. كما أن الإضافات الجديدة فى الإضاءة جعلت من أركانه كأنها منفصلة حيث الشعاع الأحمر يذوب فى آخر أصفر، والأزرق يلتقى مع الأبيض .. ومصابيح أخرى مسلطة على منتصف الصالة الكبيرة.

بينما انتهى الأستاذ فارس من استعداده، ووقف يدور حول نفسه أمام المرآة يتأكد من استقامة البدلة عليه .. بعضهم بدأ فى الحضور وزوجته انشغلت بهم .. هَمَّ بالانصراف ولكنه تراجع مسرعاً، أمطر نفسه بنصف زجاجة العطر.. ابتلع قرصاً من الأقراص المنبهة التى أهداها له أحد أصدقائه .. عاد للمرآة مرة أخرى .. شعر بأنه ازداد قوة .. وما كاد ينتهى من الممر المؤدى إلى حيث يجلس ضيوفه حتى ثبت فى مكانه عندما سمع صوت أبيه منادياً :

- يا فارس

تراجع بخطوات بطيئة .. إندلف لحجرة نصف مظلمة. تحسس الجدران حتى أنار بقية الغرفة .. كان الجد أمين جالساً بجوار النافذة وهو ممسك بعصاه .. ثم قال :

ـ اقترب .. فأنا لى حديث معك.

تقدم فارس خطوة ولكنه علق الأخرى فى الهواء عندما استطرد أبوه ... إغلق الباب

أغلقه.. إقترب منه وفى رأسه دوامات من الحيرة .. وبصوت تشوب نبراته الاضطراب تساءل :

– ماذا فى الأمر يا أبى .

جحظت عين الجد وهو يقول :

– انى أسألك أنت .. ماذا فى الأمر ؟

– أى أمر يا أبى .

ارتكز الجد على عصاه وهو ينهض، بدا عملاقاً كعادته .. ثم استدار للنافذة قائلاً :

– هذا التسيب .. والحفلات .. والأمور الماسخة.

تدلت ابتسامة مطمئنة على شفتى فارس .. كأنه كان يتوقع غير ذلك .. وهمس بثقة :

- لا أرى أموراً ماسخة يا أبى .. ثم أنها علاقات عامة تحتمها ضروريات العصر.

التفت إليه يحدق فيه بقسوة :

- أى ضروروريات هذه التى تجعل من أسمك على كل الألسنة.

حاول أن ينفعل وهو يجيبه :

- يا أبى لا تنس أنى رجل مثقف .. ومهنتى مدرس أول لغة إنجليزية .. ولست شيخاً فى كتاب.

أقترب منه الجد أمين ورأس العصا ترتعش بين أنامله :

- أنا لا أطالبك أن تعيش حياة شيخ الكتاب .. ولكنى أطالبك أن تعود لحياتك الطبيعية وما تفرضة عليك تقاليدك.

تراخت نبرة صوته وهو يقول :

- يا ابى أمور كثيرة قد تغيرت فى الدنيا .. المدنية فرضت نفسها على كل التقاليد البالية.

أجاب بتهكم :

- التحضر والمدنية فرضاً عليك أن ترتدى تلك الملابس المزركشة متشبهاً بالنساء.

حاول فارس أن يقاطعه .. ولكن أباه لم يمنحه الفرصة واستطرد:

- وأن ترى زوجتك تراقص رجلاً آخر .. وتراك هى فى أحضان امرأة أخرى .. أليس كافياً أن تتحدث لبغتهم، لكى تكون مثلهم.

لم يتمالك فارس نفسه .. وانتفضت عروق عنقه فجأة قائلاً :

- أرجوك يا أبى .. أنت تعلم أنى رجلاً محترم .. ولا ولن أسمح لأحد أن يتدخل فى حياتى بعد أن وصلت إلى هذا السن.

استدار منصرفاً .. ثم توقف برهة أمام الباب واردف قائلاً :

- حتى ولو كان .. أنت.

فتح الباب بعصبية بالغة ليفاجأ بزوجته وهى تسحب مدام هدى من يدها وهما فى ضحكة مشتركة .. ثم قالت :

- أين أنت يا فارس .. الجميع وصلوا.

أومأ برأسه وهو يحاول أن يتخلص من أسارير الغضب المرتسمة على وجهة .. وبدأ يخطو إلى خارج الغرفة ولكنها استوقفته مرة أخرى :

- انتظر .. مدام هدى تريدك فى أمر ما.

نجح فى أن يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه :

- تحت لمرك يا هدى هانم.

سارعت هدى وهى تحيط بذراعها خصر زوجته .. قائلة :

– لقد فهمت من فتحية هانم أن الأمر فى يدك وحدك.

اتسعت ابتسامته قبل أن يتساءل :

– أى أمر .. لقد شغلتنى.

– سنذهب فى رحلة لمدة يومين إلى الأسكندرية .. وأرجو أن تجعلها تذهب معنا.

رمقها باندهاش وهو يكتم ضحكته :

– من .. فتحية.

ولكنه سرعان ما اقتضب عندما قفزت هدى على الأرض عدة قفزات ساعدها على ذلك سنوات عمرها الخمس والعشرون قائلة :

– لا .. لا .. بل أقصد أحلام.

وبلا إرادة التفت وراءه لتصطدم نظرته بعين أبيه الذى عاد إلى إدراجه جالساً .. ثم استدار مرة أخرى إليها .. هامساً فى توتر :

– ولكن .. أنت تعلمين أن ..

لاحقته فتحية وهى تركز نظرتها فى عينية كأنها تذكره بشىء غائب عنه.

– ابنتنا عاقلة يا فارس.

وكأنــه يلملــم شتات كبريائه أمام والـده .. التفت تجاه هدى هانم قائلاً :

- ومتى ذلك .

- يوم الجمعة القادم.

أطلق زفزة من صدره قبل أن يجيب.

- يومان فقط.

وأخترق بجسده من بينهما، كأنه يسعى للابتعاد من هذا المكان .. ولكن الصوت الأجش أو قفه .. أو كبل خطواته عندما ترامى إلى مسامعه صوت أبيه قائلاً من الداخل :

- أغلق الباب ورائك.

تقدم ببطء وأغلق الباب وهو يسقط نظرته إلى الأرض ولم يرفعها إلا وسط ضيوفه الذين أحاطوا به مهللين .. وهو يوزع عليهم ابتساماته .. ولكنه لم يستطيع أن يتخلص طوال سهرته من نظرته الحائرة إلى غرفة أبيه المغلقة بعد كل ساعة تمر عليه.



ـ ٢ ـ

كان صباحاً رائعاً فى كل شيء .. يوم عادى فى حياة أحلام، شعرت بالشمس كأنها تشاركها بهجتها.. فراحت تفرش دفئها فى كل مكان .. والعيون حولها تبرق فى سعادة وهى تستطلع جمال الطبيعة وابتسامة الورود.

فاليوم موعدها مع عمرو .. موعد طال انتظاره على راحتى الشوق واللهفة، كان آخر لقاء بينهما منذ عشرين يوماً قضاها عمرو فى بلدته .. لم يكن فى زيارة لأهله، فهو يتيم الأبوين منذ نعومة أظافره، ولكنها زيارة دورية تحددها تعليمات عمه للأشراف على حسابات محله الذى يملكه بالبلدة.. وهو مدين بالكثير لذلك العم الذى قام برعايته حتى تخرج من كلية التجارة منذ أربع سنوات .. كان كريماً معه ولم يشعره قط بأية أحاسيس مذلة، بل سعى جاهداً أن يضمه إلى حظيرة الانتماء ليقضى على شبح اليتم فى حياته .. ولم تتبدل أحاسيسه بعد مولودته الوحيدى بشرى، فلا تفريق فى المعاملة ولا مجال لمشاعر الغربة بينهما .. سنوات طويلة مرت لتحمل نهايتها كلمة الزمن وأحكامه، فبشرى بدأت تستقطب لجسدها بوادر الأنوثة .. وعمرو جاملته سنين الحرمان برجولة مبكرة.. ولم يجد العم مناصاً من أن يستغل فرصة وجود غرفة مستقلة وخالية فوق

سطح منزلهم وأستأجرها لعمرو.. كان ذلك الموقف بمثابة أول رسالة يتسلمها الصبى اليتيم من يد القدر .. وكان عليـة أيضـاً أن يرضـخ .. وأن يعتاد.

لم تكن زيارته هذه المـرة عادية حيث كـان برفقة العم الذى تلقفته دوامـات أعماله ومجاملاته .. فانشغل عن نفسه وعنه، ولـم يستطع عمرو بل لم يجرؤ على مجرد التفكير فيما يمكن أن يحدث لـه إيزاء تغيبه المتصل عن عمله .. قد يفصل .. ولكن فرصة البحث عن عمل أخر قائمة، أما علاقته بعمة فلا فرصة فيها للاختيار.

هاجمت الهواجس قلب أحلام الصغير عندما التقت نظرتها الأولى بوجه عمرو العابس وهو غائب مع أفكاره ينتظرها في الكازينو المعتاد للقائهما.

أسرعت تجاهه .. وبكل الحب وقفت أمامه هامسة.

– عمرو .. أحمد الله أنى رأيتك بخير.

تخلص من شروده وهو يتلقف يدها الممتدة ليجلسها أمامه.

– أهلاً يا أحلام .. كم كنت أشتاق إليك.

مالت برأسها قليلاً فى دلال قائلة .

– لو كانت تلك هى الحقيقة .. ما كنت تغيبت طوال هذه لمدة.

اطلق زفرة حبيسة من صدره، فشل أن يخفيها عنها.. وأجاب:

- تعلمين يا أحلام ظروفى .. فأنا لست ملكاً لنفسى و ..

لمحت الألم وهو ينطق فى عينيه .. فهى قريبة من أعماقه أكثر من قربها لنفسها، حاولت أن تتجاهل ذلك البركان المتأجج فى صدره وقاطعته قائلة :

- بالتأكيد ياحبيبى .. إنسان رقيق مثلك فيك صفات الفنان .. طبيعى أن يكون ليس ملكاً لنفسه.

لم يبتسم .. ولم تعلق هى أيضاً .. أخذتها رحلة صامتة طافت بها حول كل الظروف واستقرت فى النهاية عند قصة حبهما التى دامت أكثر من ثلاث سنوات وهما على أمل أن تتوج بالزواج .. والأمل يخبو فى عناد مع كل يوم يمر .. وظيفته فى الشركة لا تبشر بتحقيق أحلامه قبل سنوات عديدة، بالرغم من علاقاته الحسنة بكل رؤسائه .. وهى أيضاً تدرك بأن عليها مسئولية ليست بالقليلة، هناك عقبات تنتظرها على طريق آمالها .. كيف ستقنع أسرتها بزيجة غير مستقرة .. وكيف ستواجه رفضهم الحتمى .. هموم يئن تحتها ذلك الكاهل اللين، ولكنها استطاعت من خلالها الحب الكبير أن تجعله فى خيالها بطلاً اسطورياً تتهاوى تحت قدميه كل صعاب الدنيا.

فاجأته قائلة :

- بالمناسبة لقد عاد أبى وأمى من رحلتهما .. لا تتصور مدى سعادتهما .. أنهما يحكيان عجباً عن تلك البلاد.

لم يبد اهتماماً، مكتفياً بنظرة مسالمة .. فاردفت :

- ولكنى أشعر بتغير غريب فى حياتنا .. لقد أمضيت أحلى أيام عمرى فى الفترة الأخيرة .. حفلات .. سهرات .. علاقات جديدة.

وأمسكت لحظة عن كلماتها وكأنها تصحح مفهوماً فى خاطرها وخاطره، ثم قالت :

- ولكنى فى نفس الوقت كنت تعيسة لغيابك عنى.

أغرته تلك لتطورات المفاجئة للتساؤل :

- معقول .. فارس بك أمين يسمح بالحفلات والسهرات

لاحقته فى نشوة :

- وأكثر من ذلاك .. آه .. كم أنا سعيدة لذلك التغير .. أنه فى النهاية لصالحنا ... لقد أصبحت قريبة جداً منه .. وربما تكون هناك فرصة عظيمة لاقناعه بظروفنا.

ابتسم بصعوبة قبل أن يجيبها.

- لا أظن .. لست متفائلاً يا أحلام.

- لا تعقد الأمور يا حبيبى .. ودع الأيام تأخذ مسيرتها .. والآن أتسمح لى بالانصراف فأنت تعلم ما يمكن أن يحدث لو تأخرت أكثر من ذلك.

تململ على غير رغبة ليودعها .. تمنى لو طال بهما اللقـاء .. غير أنها نهضت مسرعة قائلة :

- متى أراك يا عمرو.

وقف بتكاسل كأنه يتحـايل علـى الواقـع، فقد تشـفق هـى علـى وحدته .. ثم قال بنبرة كالأنين :

- هل يناسبك يوم الجمعة القادم.

شعر بنبضات قلبه تزلزل كيانه عندما سارعت قائلة :

- لا .. لا .. ليس الجمعة .. لنؤجلها ليوم آخر.

تسـاءل بنظـرة مندهشـة دون أن ينبـس بكلمـة واحـدة .. فاستطردت :

- نسيت أن أخبرك بأمر قد يدهشك.

أى أمر.

- سأسافر إلى الأسكندرية فى رحلة لمدة يومين.

أشاح بوجهه قليلاً وهو يقول :

- مع أسرتك .. ومتى ستعودين.

بدأ الاضطراب يزحف على أسارير وجهها ثم أجابت :

- سأسافر بدونهم .. ولكنى سأكون بصحبة جارتنا هدى ..

التفت إليها منزعجاً :

- ماذا قلت .. ستسافرين بمفردك.

قالت متلعثمة :

- لست بمفردى .. وإنما .. أقصد جارتنا هدى ستكون معى.

قاطعها قائلاً :

- كيف .. هل وافق فارس بك.

تجاهلت سؤاله وهى تقول :

- أنت تعلم عناء الامتحانات .. ثم إنها فرصة لكسر قيود الحصار الذى كان مفروضاً على .. أقصد علينا أنا وأنت.

ثم نظرت إلى ساعتها فى قلق وهى تسحب خطوتها إلى الخلف قائلة :

- والآن يا عمرو .. أرجو ألا أتأخر .. فمتى أراك.

وبلا تفكير ردد كأنه يحدث نفسه.

- عندما تعودين.

استدارت مسرعة بخطواتها .. وتركته يتابعها بنظرة مذهولة وهو ثابت فى مكانه كأنه تجمد فى قلب جبل من الجليد.

كان عمرو فارع الطول .. له بدن رياضى وبشرة بلون صفاء النيل .. فى عينيه نظرة طالت حيرتها، وعلى قسمات وجهه استقرت بصمات الحزن .. له نبرة كصوت الصدى فى أعماق الكهوف زاده غموضاً .. يتوج رأسه شعر أكث قاس، خصلاته تشبه ذوبان الليل فى أحضان الفجر.

سار يقطع الطريق إلى منزله بخطى حائرة كأفكاره .. الصور أمامه تغلفها ستائر ضبابية يصعب وضوح الرؤية خلالها، كأنه رافض لكل رؤية غير التى استقرت فى مخيلته، حيث أمتلأت عيناه بوجه أحلام وهى فى ثوبها الجديد .. أو فى أحلامها الجديدة.

بدأ يصعد درجات السلم وهو منهك القوى بعد رحلة دامت ثلاث ساعات قطعها سيراً على الأقدام بدءاً من كازينو مدينة المهندسين إلى منطقة العباسية حيث يقيم.. وما كاد يتجاوز شقة عمه، حتى استوقفته بشرى منادية :

– عمرو .

التفت إليها والأعياء يضغط على جفنيه .. فأردفت :

– أهلا يا عمرو .. حمد الله على سلامتك .. لم أرك عند وصول أبى ..

بدأ يهبط إليها وهو يجاهد فى جذب ابتسامة على شفتيه :

- بشرى .. كيف حالك يا ابنة عمى.

- بخير يا عمرو .. لقد طالت غيبتك عنا .. لك وحشة كبيرة.

راعها ذبول نظرته عند اقترابه منها .. ثم قالت :

- ماذا بك .. أراك مبتئساً .. أرجوك لا تخف شيئً عنى.

- لاشيء يا بشرى .. لا شيء .. ولكنى مرهق قليلاً.

رفعت وجهها إليه وهى تداعبه قائلة :

- أحقاً إرهاق .. أم عذاب حب جديد .. أنا أعرفك جيداً.

لم ينجح فى الابتسام .. بينما سارعت هى متذكرة :

- آه يا عمرو كدت أنسى .. لقد وصلك خطاب من شركتك ولكنه يقاطعهاوهو يومىء برأسه.

- أعرف مضمونه .. لقد كنت متوقعاً أن يصلنى هذا الخطاب.

- أى مضمون .. ومالك هكذا .. اتعرف أنك تبدو غير وسيم عندما تكتئب.

تنهد مستسلماً قبل أن يجيبها :

- لقد فصلونى من عملى .. أليس كذلك.

لم يبد عليها التأثر .. واستمرت قائلة :

- مسكين يا ابن العم .. هذا جزاء من يتأخر كثيراً عن أهله .. وأحبابه.

طحن أسنانه مجتراً ألمه، واستدار ليصعد مرة أخرى وهو مطأطىء الرأس دون أن يحدثها، ولكنها تلحق به عدة خطوات ..ثم قالت :

- ياعمرو .. يبدو أننى أخطأت توقيت المزاح معك .. على كل حال لا تخشى شيئاً، لقد توقعت طول مدة غيابك .. فذهبت إلى شركتك وتقدمت بطلب أجازة مرضية لك بعد سفرك بخمسة أيام.

سارع متلهفاً :

-والخطاب.

ضغطت على ذقنه بأصبعها قائلة :

- خاص بتحويلك لمستشفاكم أيها المريض العنيد.

تراخت أسارير وجهه دون أن يسعى لذلك .. ثم همس إليها قائلاً:

- أنت دائماً تفعلين الكثير من أجلى .. أنت ..

قاطعته وهى ترنو إليه بنظرة حانية :

- لاتقل شيئاً .. واصعد لتستريح.

ثم أسرعت مندلفة إلى شقتها دون أن تلتفت إليه، كأنها تخشى مواجهته تلك اللحظة أو تخشى أن تغرر بها نظرتها وتبوح بما حاولت كتمانه سنوات طويلة.

كان لبشرى جمال يحسدها عليه أغلب الفاتنات من أقرانها .. لها قامة ممشوقة في كبرياء، وشعر بلون الليل ينساب فوق ظهرها، كأنه يحميها من طعنات القدر .. في عينيها نظرة حب لا تغيب عن حدقتها .. مرحة جذابة في حديثها .. متزنة في آرائها وحريصة على اسرارها .. فبالرغم من علاقاتها المتعددة سواء قبل تخرجها من معهد السكرتارية أو بعد ذلك، إلا أنها لم تفش لأحد ما يجيش في صدرها من حب لعمرو .. خاصة إليه .. كانت تخشى من لحظة تنهار فيها ذكريات سنوات طويلة .. عاشت خلالها تراقب إحساسها وهو ينمو في قلبها، كانت تخشاه .. وتخشى الغموض الذى يفرضه حوله، واصراره المستمر على التقوقع من خلال تلميحاته الصامتة لها.

من أجل هذا لم تستطيع مواصلة الحديث معه تلك اللحظة .. فهي المرة الأولى التي يحدثها عن نفسها وعن مواقفها الكريمة معه .. خافت أن يجرفها تيار الحنان تجاهه، قد تفوز بكل شيء .. وقد تخسر كل شيء .. فآثرت الصمت، بل الهروب .. فحب على أمل خير لها من مغامرة غير مضمونة.

أما هو فلم يستطيع أن يترجم موقفها الأخير تجاهه .. ولم يحاول ذلك .. كان تحت قبضة دوامة عنيفة تعبث بأعماقه كيفما شاءت.

إستلقى على فراشه وعيناه تدور تحت سقف الغرفة كأنه يبحث عن شيء مجهول .. يريد أن يراه .. كانت صور أحلام ملتصقة بخياله بقوة. انتابه إحساس بالخوف من الغد، شعور غامض داهمة وهو يسترجع كلماتها الأخيرة .. كانت غريبة في تصرفاتها. فاترة في لقائها. متوترة في حركاتها. لم تكن كعهده بها.

اعتدل في جلسته على الفراش ليطل من خلال النافذة إلى لا شيء، فقد تذلل كثيراً للنوم فأبى عليه.. حاول أن يجد تفسيراً لتساؤلاته .. ولكنه فشل. من هي هدى .. وماذا عن العلاقات الجديدة .. والحفلات والسهرات، وكيف انقلبت صورة فارس أمين رأساً على عقب .. أين الحزم والتزمت الذى كان يسمع عنهما ؟ كيف سيسمح لها بالسفر بمفردها .. ولماذا ؟

تمنى لو رآها الآن ليطفىء لهيب حيرته .. نهض ودار حول نفسه في الغرفة .. راوده خاطر أن يرتدى ملابسه ويبحث عنها القلق كاد أن يفجر رئتيه.

اقترب من النافذة، مسح السماء بعيون لا ترى .. أحس بالحاجة إليها .

همس في صدره :

.. ليتها تدرى.

ولكنها لم تكن تدرى .. وكيف يتسنى لها ذلك وهى منشغلة فى ترتيبات حفل الليلة الذى يقام علــى شرف وفد آخر. ما بين تنسيق الزهور فى أوانيها، وتأكدها من صلاحية الإضاءة منذ الصباح، ثم تقوم بطهى بعض المشهيات أو تصنيف اسطوانات الموسيقى حسب جنسية الضيوف.

وبينما كانت تطمئن على نظافة الاثاث، وهى المرحلة الأخيرة .. تقدم نحوها الجد أمين وهو يتابعها بنظرته الحانية وقال منادياً :

- أحلام ..

وما كادت تشعر بوجوده خلفها حتى قفزت إليه تحتضنه كعادتها معه .. وعبثت بشاربه وهى تقبله :

- ما أعظمك يا جدى .. أنت أعظم جد فى الوجود.

ربت على كتفها بيد وأحاطها بالأخرى الممسكة بعصاه قائلاً :

- أريد أن أتحدث معك قليلاً يا أحلام.

جذبته من يده برفق لتجلسه بجانبها وهو يطاوعها.

- لاتقل قليلاً يا جدى أمين .. بل قل العمر كله.

أطلق زفرة من صدره، وقد بدا عليه شىء مِن القلق.

- إذن فأنصتى يا ابنتى.

- ماذا بك يا جدى ؟

دقق النظر.. إلى عينيها :

- أحقاً ستسافرين وحدك مع تلك المرأة التى تدعى هدى

مالت برأسها قليلاً وهى تتساءل.

- وماذا فى الأمر يا جدى.

بدأت نبرته تزداد خشونة :

- تتساءلين ماذا فى الأمر .. أليست هدى تلك صاحبة السمعة السيئة .. ألم نمنعك عنها من قبل.

نهضت بهدوء من جانبه .. ثم أجابت وهى مولية له ظهرها :

- من قال هذا يا جدى.

لاحقها وهو يدق بعصاه على الأرض :

- أبوك نفسه قال هذا من قبل.

التفتت إليه وهى تخفى إنفعالها.

- ولكنه موافق الآن .. بل كثيراً ما يطلب منى أن استدعيها.

قاطعها ثائراً وهو ينهض بعصبية :

- أبوك مسه الجنون.

- جدى .. لاتقل هذا عن أبى.

تمالك نفسه وهو يمسح بكفه على شعرها.

- يابنتى .. أنت لا زلت صغيرة، والحياة مليئة بالمنحنيات.

رفعت عينيها إليه وقد ترقرقت دموعها بين جفنيها :

- بالرغم من امنيتى للسفر إلى تلك الرحلة .. إلا أننى على استعداد لألغاء الفكرة من أجلك يا جدى.

- لا يا ابنتى لقد فات الأوان .. ولكن أتوسل إليك أن تراعى نفسك جيداً .. فأنت ..

ولكنه توقف عن الحديث عندما شعر بحضور فارس من الخارج وهو محمل ببعض حاجات الحفل .. فسكن برهة، حاول أن يستوعب من خلالها الموقف، ثم تقدم نحوهما مدعيا اللامبالاة.

- أهلاً يا أبى.

والتفت إلى أحلام قائلاً :

- كيف حالك يا أحلام.

أسرعت نحوه وتناولت ما بين يديه ثم توارت عن نظرة، بينما جلس فارس على مقربة من أبية، ومضت لحظات صمت متوترة قبل أن يبادره :

- مازلت غاضباً منى يا أبى.

اشاح الجد بوجهه عنه .. ثم بدأ يتحرك إلى غرفته وهو يضغط على رأس عصاه ولكن فارس ينهض مسرعاً وراءه مردداً :

- يا أبى .. دعنى أفسر لك بعض الأمور .. أننى استفدت كثيراً من تلك العلاقات وأصبحت الأن أقوم بترجمة كثير من الأعمال والكتب من خلالهم .. وأنا أربح الكثير من هذا.

التفت إليه الجد وفى عينيه نظرة جامدة :

- لعلك تربح أكثر فيما بعد.

ثم تركه منصرفاً.

لم يتحرك فارس من مكانه .. فكر كثيراً فى كلمات أبيه الأخيرة. لم يجد لها معنى فى ذهنه ولم يحاول أن يجد، فقد كان قلقاً من أمور أخرى .. ربما لأنه كان يشعر بأن أباه يرصد كل تصرفاته فى صمت وهو فى غرفته.

كان يدرك بأن الموقف بينهما ليس مجرد اختلاف فى وجهات النظر، فعلاقاتهما بدأت تأخذ مجرى جديداً لم يعتد عليه معه، كما أنه يعرفه جيداً عندما يتبنى فكرة ما.

وجدته فتحية على حاله بعد عودتها من عملها، لـم يستطيع أن يخفى عنها حيرته وصارحها بما يعنيه من موقف أبيه، لم تعر للأمر أهمية فى البداية.

ولكنه فأجاها باقتراحه قائلاً :

- أرى ألا نستقبل أحداً فى المنزل اليوم.

تلقت كلماته كأنها نهاية الدنيا.

- ما هذا الهراء الذى تقوله .. ألا تعلم أن الجميـع قد ..ولكنـه يسارع مصححاً قصده.

- أنا لم أقل نلغى حفل اليوم .. بـل أفضـل أن نحتفل بهم فـى الخارج، على الأقل اليوم فقط.

بدا عليها الاستياء واضحاً وهى تجيبه :

- ثم بعد .

حاول أن يتكلم . ولكنها استطردت وهى تحيط كتفه بذراعيها :

- اسمع يا فارس. لقد لاحظت كثيراً تدخل عمى فـى شئوننا.. ولكنى كنت اتجاهل موقفه من أجلك يا حبيبى.. والمشكلة ستظل قائمة سواء انتقلنـا للخـارج اليوم أو لـم نفعل فالليلـة ليست الأخيرة فمـاذا سيكون الموقف بعد ذلك.

احتوته لحظة ضيق ازداد من خلالها بؤساً، ثم أدارت وجهها تجاهه وهى مشفقة على حيرته.

وهمست فى تدلل :

- أنها ليست مشكلتنا فقط يا فارس .. إنها مشكلة أجيال .. المهم أن تكون أنت مقتنعا بتصرفك.

قفزت كالنمرة المتربصة وجلست أمامه على ركبتيها ثم أحاطت وجهه بكفيها وباغتته بقبلة باردة .. وتساءلت :

- هل فى تصرفاتنا ما يعيبنا يا حبيبى.

نفى باشارة من رأسه كالطفل الوديع، ولكنها لم تكتف بذلك وأعادت عليه سؤالها فشعر بنخوة الرجولة تعبث بأعماقه .. وأجاب مؤكداً :

- لابالطبع .. ولكنه اثارنى بتهكمه.

نهضت غير مبالية بتأثره ..وقالت :

- لا تهتم يا عزيزى .. قل لى أولاً هل اخترت المكان الذى سنسهر فيه.

انتفض من مكانه كأنه كان يتحين تلك الفرصة قائلاً:

- أى مكان يا حبيبتى .. أى مكان.

حاول أن يحتضنها ولكنه تراجع عندما شعر بوجود أحلام خلفهما وهى تصيح :

- أراكما تتفقان على أمر هام .. ألا تشركانى معكما.

ضحكاً من أعماقهما .. ولكنها تذمرت فى دلال عندما علمت بما سيحدث الليلة .. فهى أعدت كل الترتيبات وبذلت جهداً غير قليل.. كيف ستقضى ليلتها وحيدة بعد أن هيأت نفسها لقضاء وقت ممتع .. ولكنها سرعان ما هدأت أمام اقتراح والدتها.

- يمكنك التسامر مع هدى .. فهى أيضاً بمفردها اليوم.

تدخل فارس مبتهجاً كأنه يريد التخلص من هذا المأزق.

- هذا عظيم .. ثم أنت ستسافرين بعد غد، وأنتما فى حاجة إلى التشاور.

ولم تعلق أحلام وتركتهما متجهة إلى غرفتها كأنها رضخت لشيء لا ترغبه .. ولكنها فى حقيقة الأمر كانت سعيدة.

تقلبت على فراشها عدة مرات كما لو كانت تدور حول الدنيا وترى مباهجها .. وأختلطت الأفكار فى رأسها .. تارة تقذفها إلى شواطيء الاسكندرية وأخرى تدغدغها أحاسيس الحرية .. ثم تهدأ مستسلمة لصورة عمرو وأحلامها معه .. ثم تعود لتسترجع أحداث الليالى الماضية مع ضيوف أبويها .. شعرت بالنشوة تذوب فى صدرها عندما تذكرت كلمات الأطراء التى تحدث بها الشاب الفرنسى

وترقرقت ابتسامة على شفتيها وهى تستعيد العبارات الفكاهية التى كان يهمس بها فى أذنيها ذلك الإيطالى الوسيم .. كم كان جريئاً .. انقلبت على بطنها وهى تتوقف فى استحياء عند ذلك المشهد الذى جمع بين فتاة فى عمرها مع رجل فى عمر أبيها من خلال قبلة عجيبة، يومها لم يفزعها ذلك المشهد بقدر ما أثار دهشتها اللامبالاة التى شملت الجميع فاحست بالحرج لتطفلها على حرية الأخرين.

هكذا غابت فى رحلة دامت ساعات طويلة كاد أن يغلبها النعاس ولكنها قاومته فى أصرار .. اكتشفت أنها لم تشعر بأنصراف والديها .. الليل بدأ يفرش سدوله على الأفق .. لم تحتر كثير فى اختيار ملابسها والأمر لا يستدعى منها التزين، صديقتها على بعد خطوات من الشقة .. إنتبهت لوجود جدها وهو يجلس منفرداً أمام شرفته أثناء ذهابها إلى هدى .. تمنت لو توقف الزمن تلك الليلة .. بهرتها أمور عديدة وهى فى جلستها مع هدى .. الأثاث والديكور. الملابس والمجوهرات. التحف وأحدث الاشرطة الموسيقية .. براعة الحديث عند صديقتها، فهى تتحدث فى كل شىء وتفلسف كل شىء .. كانت المرة الأولى التى تنفرد معها فى أحاديث طويلة بلا أصدقاء أوضيوف .. كانت هدى تتنقل بها من غرفة إلى أخرى ومن أقصوصة إلى غيرها، حدثتها كثيراً عن ثرائها وزوجها الأول، عن أحاسيس الوحدة بالرغم من كل التجمعات التى حولها .. عن أمور بعض الرجال وذكاء بعض النساء .. عن المجتمع ونظرة الآخرين الظالمة .. عن افتراءات الناس وهم ما بين حاقد أو عاجز .. وعن

الحب العصرى وما يجب أن يكون عليه. وبأن لاعطاء بــلا مقـابل .. كانت أحلام كالمسحورة وهى تستجمع كل انتباهها للانصــات إليهـا .. أخذها الحماس فاخبرتها بقصة حبهـا لعمرو، أفضـت لهـا بكـل شـىء وعن تصوراتها لموقف أبيها تجاه تلك العلاقة إذا علم .. أحست بالاتيارح يغمر صدرها وهى تستمع لخبرة صديقتها فى مثل تلك الأمور .. خطفتها دنيـا الأمـانى مـن خـلال وعـود هـدى لهـا، وكيـف ستريها الحياة علـى حقيقتهـا عندمـا يذهبـان إلـى رحلتهمـا .. ستكون الفرصة أكثر .. والوقت أفضل .. وعدتها بأشياء كثيرة احستها بقلبهـا قبل أن تراها بعينيها ولم تبالغ هدى. بل كانت أكثر أمانة مما توقعت أحلام .. قضيا يومين فقط فى الاسكندرية، وكأنها أغفاءة حلم سـعيد.. اكتشفت أحلام أن صديقتها تملك هناك شقة لا تقل فخامـة عـن شـقتها فى القاهرة .. يومان لم تر النوم خلالهما غير سويعات قليلـة .. رأت وجوها جديدة غير الذين رأتهم فى ضيافـة هـدى مـن قبـل، اسـتمتعت بالسباحة وهى ترتدى المايوه ذا القطعتيـن الـذى قدمتـه هـدى إليهـا .. ضحكت كثيراً من عبث أمواج البحر وهى ترفعهـا وتحطهـا، وكذلـك من أيدى الأصدقاء الجدد. بهرتها اضواء النايت كلوب .. شىء آخـر غـير الـذى رأتـه فـى منزلهـا .. فكـرت أن تقتبـس بعـض الديكـورات لتصميمها فى ركن الصالة بشقتها بالقاهرة. كان قلبها الصغير يلهث فى سعادة وهى تراقص الواحد تلو الأخـر مـن المجموعـة .. شـردت بذهنهـا فـى مقارنـات غير عادلـة ولا مقبولـة، كلمـا انتبهـت لأحدهـم وقارنت بينه وبين عمرو .. تمنت لو كان لحبيبها تلك البدلة الرائعة

التـى يرتديهـا الشـاب الـذى يراقصـهـا، وذلـك المـرح الـذى يمتـاز بــه الثانى، والسيارة البونتياك التى يقودها الثالث .. تمنت كل شىء وكل الامكانيات لو كانت لدى أغلى ما فى حياتها .. لو كـانت لـدى عمرو .. ولكن سرعان ما كانت تذوب الأمـانى أمـام لحظـات الواقـع الـذى تعيش فيه، وكأنها فقاقيع الهذيان التى ما تكاد تطفو على سطح الخيـال حتى تنفجر، وما اسرع الزمن فى الأوقات السعيدة .. وكـان قرارهـا بالعودة، فلقد انتهى اليومان ولكن لم ينته كل شىء، فهناك آمال جديدة ووعود عديدة، مازالت تحملها الليالى القادمة.

وعلى طريق العودة التفتت هدى إليها وهى تقود سيارتها قائلة:

- كم كانت ر حلتنا ظريفة .. أليس كذلك.

سارعت أحلام .. وأجابت بصدق :

- لاتتصورى مدى سعادتى. لن أنسى تلك الأيام طوال حياتى.

ابتسمت هدى بثقة .. ومضت دقائق صمت ثم فاجأتها متسائلة:

- ما رأيك فى هشام وطارق وحاتم.

- جميعهم فى غاية الرقة وكذلك الاناقة.

أحسست بالكلمات تتحجر فى حلقها عندما باغتتها هدى بلا مقدمات :

- بالمناسبة .. صديقك عمرو هل يشبه أحداً من الثلاثة.

اندفعت الدماء إلى رأسها فجأة .. وبصعوبة بالغة حاولت أن تقتنص ابتسامة فوق شفتيها، رمقتها بنظرة خاطفة ثم انتبهت للطريق امامها وهى مستسلمة لسلطان الصمت أو العجز عن الاجابة.

وكأن هدى قد ادركت ما يدور بخلد صديقتها فسارعت بخبرتها قائلة :

- أسفة .. إذا كنت ذكرتك بمشاكلك.

أومأت براسها فى أسى قبل أن تجيبها :

- أبدا بالعكس .. الواقع يفرض نفسه، ومن الصعب التحايل عليه.

ثم عادت إلى صمتها وهى تقاوم إحساساً بالاختناق كان يضغط على صدرها دون أن تعرف له سبباً .. أو لم تحاول أن تعرف.



— ٣ —

كان قيظ الظهيرة شديداً وخطوات عمرو تدب على الأرض برشاقة، وهو عائد إلى منزلة مبكراً على غير العادة، بعد يوم عمل مشحون بالاحداث السعيدة .. لقد حقق اليوم انتصاراً جديداً على إحساس اليأس الذى تمادى فى فرض سطوته على وجدانه، حيث استطاع الحصول على موافقة رئيس مجلس إدارة شركته بأن يعمل فترتين متواصلتين ليحقق لنفسه دخلاً يعينه على تحقيق أمله .. كما أنه نجح فى الحصول على تأكيدات بتعيين ابنة عمه بشرى فى الوظيفة الشاغرة بإدارة الحسابات طرفهم، وهو بذلك يحقق ما كان يرجوه منذ زمن بعيد بأن يقدم إلى عمه خدمة صغيرة مقابل العديد من المواقف تجاهه على مر السنوات الطويلة التى مضت .. كان سعيداً وفخوراً بذلك، وسعيداً بموعد لقائه بأحلام الذى سيتم بعد سويعات قليلة.

بدأت خطواته تسرع فى حماس، كأنه يقطع المسافات والزمن معاً .. تمنى لو تجسد كل شيء أمامه تلك اللحظة .. يريد أن يرى بريق الأمل وهو يضيء مقلتى أحلام .. وإن يرى البهجة تتراقص فوق أسارير بشرى .. وأن يتلقى نظرة الرضى والامتنان من عمه.

اقترب من منزله وهو يعايش نشوته مع الآمال التى تنتظره ـ وما كاد يدلف إلى البوابة حتى آفاق من غيبوبة الأمانى عندما أصطدم برجل غريب منصرفاً دون أن يلتفت إليه.

توقف برهة استجمع شتات واقعة من جديد ثم أسرع إلى شقة عمه ليخبرهم بما أتى به من أنباء .. لم ينتظر طويلاً أمام الباب حيث أنفرج عن زوجة عمه وكأنها كانت فى انتظاره .. وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، استوقفه حديث عمه مع بشرى وهو يؤنبها على تسرعها برفض المتقدم إلى خطبتها تحت مبررات واهية يمكن التفاهم بشأنها، فتقدم خطوة تجاهها عندما انتبه إليه العم قائلاً :

ـ أهلاً يا عمرو .. لقد جئت مبكراً اليوم .. أليس كذلك.

ـ نعم يا عمى .. لقد.

قاطعة وهو يشير إلى بشرى قائلاً :

ـ كنت أتحدث معها بشأن ذلك الشاب الذى تقدم إليها الآن ـ فهو حقاً بالرغم من كل حسناته إلا أنه يحتاج لوقت طويل لكى يكون مستعداً للزواج .. ولكن الذى أدهشنى هو مبدأ الرفض عندها.

نظر إليه بصرامة أهتزت لها أهداب عمرو كأنه المسئول ـ ثم تساءل متعجباً :

ـ لست أدرى إلى متى ساتحمل منها ذلك الدلال .. بالمناسبة راك كنت تريد أن تقول شيئاً عند حضورك.

ارتعشت شفتاه قبل أن يجيبه قائلاً :

ـ أجل يا عماه .. جئت استسمحك فى قبول طلبى بأن تعمل شرى بالشركة فى إدارة الحسابات .. فلقد استطعت ..

ولكنه توقف عن الحديث أمام تصرف بشرى الغريب، حيث قفزت فجأة فى مرح، وتحول عبوس وجهها إلى بهجة أثارت لجميع.. ثم قالت :

ـ أحقاً يا عمرو .. أحقاً سيمكننى العمل معك .. أقصد هل وجدت لى وظيفة.

أومأ عمرو برأسه .. فقد حال الاضطراب بينه وبين الكلام، بينما صمت ألعم للحظات ثم رفع عينيه تجاهه قائلاً :

– وهل ستكون فى رعايتك.

هدأت نبضات قلبه بعض الشىء وأراد أن يسترسل فى باقى الأخبار التى لديه :

ـ لقد وافق رئيس مجلس الإدارة أن أعمل فترتين حتى ..

ولكن العم يقاطعه كأن الأمر لا يعينه قائلاً فى اقتضاب :

ـ المهم أن تكون تحت رعايتك.

ـ بالطبع يا عمى.

وتراجع عمرو منصرفاً ومبتلعاً حديثه بعد أن تقافزت الأمور بسرعة على غير ما توقع.

وفى حجرته حاول أن يتخلص من تطفل بعض أفكاره المشتتة .. ولكنه لم يفلح، حيث ألحت عليه بشرى ونظراتها التى كاد تنطق بالحديث إليه .. حاول أن يجد لها مضموناً عنده ولكنه أيضاً فشل . وكذلك موقف عمه من الشاب المتقدم ورأيه فيه .. استعاد فى ذهنه كلماته بأن الشاب مازال أمامه الطريق طويلاً .. تذكر والد أحلام وتسلل إلى مخيلته صورته أمام ذلك الموقف، فلن يكون بالتأكيد أفضل حالاً من ذلك الشاب المتأنق .. هزة شعور بالقلق إذا ما وضعته الأقدار فى موقف مشابة أمام أسرة أحلام .. كيف سيكون مصيره بدونها .. وكيف يكون موقفها.

نهض مندفعاً كأنه لدغ من عقرب يختبىء تحت جلده، عندما استرجع من ذاكرته التغيرات التى طرأت على أحلام، ثم كرر سؤاله الحائر.

ــ ترى ماذا سيكون موقفها.؟

ولكن سرعان ما هدأت مشاعره عندما تذكر أنه على موعد معها .. وبدأ يشغل نفسه بهندام ملابسه استعداداً للقاء الحب الكبير.

تحسس ربطة عنقة بأصابعه وهو يقفز فوق السلم .. شد قامته مزهواً بشبابه، مختالاً بأحسيس السعادة التى تنبض فى قلبه .. فوجىء ببشرى صاعدة إليه .. لم يتوقف، ولم تتوقف هى .. والتقت نظرتها معه بابتسامة هادئة :

ـ كنت صاعدة إليك لأشكرك ياعمرو.

بدا رقيقاً وعطوفاً وهو يجيبها.

ـ كنت سأمنعك من هذا.

مسحت وجهه بنظرتها .. شعر بالارتباك أمام لحظة الصمت التى جمعت بينهما .. حاول أن يفعل شيئاً، فابتسم بلا مناسبة .. همست برقة.

ـ أراك متأنقاً .. تبدو كأنك ذاهب إلى حفل.

وجدها فرصة لأن يتجاوزها بضع درجات ثم قال ضاحكاً :

ـ هذا سر .. سأخبرك بكل شىء فيما بعد.

توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً، ألتفت إليها .. كانت تطل عليه فى هدوء .. تردد برهة قبل أن يسألها.

ـ بشرى .. لماذا رفضت الشاب الذى تقدم لخطبتك .. وحقاً إنك..

ولكنها تقاطعه وهى تشير إليه بأصبعها محذرة :

ـ لا .. لا هذا سر .. سوف أخبرك بكل شيء فيما بعد.

وقف حائراً لا يعرف ماذا يقول. ثم تحرك متردداً فى الهبوط .. لم يستطيع مقاومة رغبته فى النظر إلى أعلى بعد كل عدة درجات من السلم يخطوها .. رآها تتابعه وهى فى مكانها إلى أن انتهى عند الباب الخارجى .. رفع رأسه قبل أن يتوارى .. لوحت بيدها مودعة .. بادلها باشارة من يده ثم انطلق إلى الطريق.

بدا شاردا وهو يطل من نافذة الأتوبيس .. الطريق إلى مدينة المهندسين طويل، والأفكار تتشابك فى رأسه .. حاول أن يتابع الأشياء بعينه .. الأشجار، والأعمدة الكهربائية، والمارة .. و .. اكتشف أن عينيه تخدعانه، وتعكسان إليه صوراً أخرى .. تجمعت كلها فى صورة واحدة .. موقفه الأخير مع بشرى.

وصل إلى حيث يريد .. انطلق يعدو مسرعاً .. الساعة الرابعة والثلث، لقد سرقه الوقت عن موعده .. دخل الكازينو وهو لاهث يبحث بعينه فى كل مكان عن أحلام .. لم يجدها .. تشاءم وهو يشعر بقلبه يهوى نادماً .. همس فى نفسه :

.. إذن لقد انصرفت بعد تأخرى.

لعن حظه العاثر وهو يجلس وراء مائدة متطرفة، تحرج من أن يسأل "الجرسون" عنها .. إحساسه بالندم كاد يبكيه، رفع رأسه

للسماء مستعطفاً .. وما كاد يهبط ببصره إلى الأرض حتى انتفض واقفاً .. رآها تعدو نحوه مسرعة، ترك مكانه مندفعاً إليها .. بدا عليها القلق والاضطراب وهى تمسك بكفيه قائلة :

ـ أسفة يا عمرو .. لقد تأخرت عليك كثيراً .. كنت منشغلة مع أمى فى ترتيب بعض الأمور.

أزدرد ريقه مهموماً ..

جذبته إلى المائدة من جديد ثم قالت بهدوء وهى تجلس :

ـ كنت متأكدة بأنك ستنتظرنى

وبلا تحمس قال متسائلاً :

ـ لماذا ؟

سارعت تجيبه وهى تداعبه :

ـ على الأقل يكفى عناء الأتوبيس.

لم يبتسم .. فاردفت :

ـ وأنت كيف حالك ياعمرو.

وكأنه تذكر حاله .. وبأن عليه أن يكون سعيداً فانفرجت أساريره وهو يقول متفائلاً :

ـ عندى لك أنباء ستسرين لها. وبدأ يسرد عليها كل شىء وكيف سيتضاعف دخله الفترة المقبله .. وبأنه مستعد لأن يفنى حياته من أجلها ومن أجل حبهما الكبير، وكيف سيختصر الزمن بهذه الطريقة وبأنه سصبح قريباً مستعداً لمواجهة أبيها. كانت تتابع حركة شفتيه وإشارات يده المنفعلة وهى شاردة .. إحساس ما أقتحم وجدانها فجأة، لم تستطع أن تخفى نظرة عينيها الملولة وكأنها لا تريد أن تسمع شيئاً بقدر ما تريده بجانبها .. أو كأنها اكتشفت فجاة بأنها تحبه بقلبها فقط أما عقلها فهو بعيداً جداً.

أنتهى من حديثه ولم تنته هى من شرودها، تصورها حالمه مع آمال المستقبل .. ازداد سعادة وهو ينبهها قائلاً :

ـ هه .. ما قولك يا حبيبتى فى تلك الأخبار.

اضطربت لسؤاله، فهى لم تسمع أغلب حديثه الحالم .. ابتسمت فى فتور ثم قالت :

ـ وهل سيستمر هذا الحال طويلاً.

ـ ماذا تقصدين يا أحلام.

تداركت وهى تجيبه :

ـ لا شىء .. أقصد ستظل تعمل فترتين إلى متى.

ظل محتفظاً بتفاؤله وهو يقول مؤكدا :

ـ حسبماً أريد يا عزيزتى .. فأنا علاقتى برئيس مجلس الإدارة جيدة ..

ولكنها تفاجئه كالصاعقة قائلة :

ـ لماذا لا تعمل فى الأعمال الحرة يا عمرو.

صمت للحظة منزعجاً ثم قال مستفسراً :

ـ ماذا قلت يا أحلام ؟

ـ أقول لماذا لاتعمل فى الأعمال الحرة .. فهى تدر أرباحا وفيرة

وهنا لم يتمالك توازنه وراح يقهقه من قلبه حتى بدا وكأنه أصيب بنوبة من الهستيريا .

ثم قال وهو يسترد أنفاسه :

ـ الأمر ليس بهذه البساطة يا حبيبتى لابد من المال.

غابت مع فكرها .. تذكرت الثلاثة الذين التقت بهم فى الاسكندرية .. لمعت فى عينيها الساعات، والميداليات الذهبية .. شعرت بنعومة المقعد فى السيارة البونتياك ورائحة العطر .. سيطر الاكتئاب بوضوح عليها ولم تفلح فى اخفائه .. كان يراقب ذبول نظرتها .. كاد أن يجن وهو يسألها :

ـ ماذا بك يا حبيبتى.

تنهدت فى ألم وهى تجيبه :

ـ أبداً .. ولكنى أفكر كيف سنلتقى بعد اليوم .. فأنت ستكون دائماً فى عملك.

شعر بالاحباط وكأنه قد ارتكب ذنبا لقبوله العمل فترتين .. ولكن سرعان ما استجاب لفكرة، رأى فيها الخلاص من المأزق، وقال بصوت مرتفع :

ـ وجدتها .. سنلتقى كل أسبوع فى يوم أجازتى .. سنقضى اليوم بأكمله معاً.

ومرة أخرى يصمت عاجزاً أمام قولها :

ــ لا أستطيع .. فأجازتك توافق عطلة أبى، وهو لا يزال كسابق عهده معى، بالرغم من كل شىء.

ــ ولكنه يسمح لك بالسفر وحدك مع جارتك.

لم تتردد وهى تؤكد قائلة :

ـ أنه يثق فيها .. و

قال منزعجاً :

ــ كيف .. ؟ أيثق فى إنسانة كان ينعتها بأفظع الصفات.

بدت وكأنها تنهى المناقشة :

ـــ لم يكن محقاً على كل حال، وأمى أقنعته بخطئه ..

صمتت برهة ثم استطردت :

ـــ ثم إن هدى إنسانة لاغبار عليها.

حاول أن يتلطف أمام حدتها :

ـ أنا لم أقل شيئاً عنها .. ولكن ..

ابتلع كلماته عندما وقفت فجأة قائلة :

ـ يجب أن أنصرف الآن يا عمرو .. لقد تأخرت كثيراً.

بدا الطريق طويلاً وهما يسيران فى صمت.. ثم فاجأها قائلا:

ـــ كيف سأراك يا أحلام.

ضمت شفتيها بإشارة تنم عن عجزها فى التصرف .. أثارة سلبيتها وهو يقول :

ـــ إذن ليس أمامى غير حل واحد

ـــ ما هو يا عمرو.

ـــ سأترك العمل الإضافى.

لم تستطع إخفاء إبتسامة السخرية على شفتيها .. ثم همست

ـ وتظل هكذا إلى الأبد .. أنت تحلم وأنا أحلم.

امتقع وجهه فى بؤس وهو يقول :

ــ وماذا عساى أن أفعل لقد ..

قاطعته ببرود قائلة :

ــ لدى فكرة.

ــ هاتيها أرجوك.

شعر بكلماتها تشق صدره قبل أذنيه وهى تقترح قائلة :

ــ ما رأيك لو اتفقنا على يوم نلتقى فيه عند هدى صديقتى

ــ ماذا ؟

لم تضطرب لاندهاشه وهى تسترسل :

ـ أختر الأيام التى تناسبك فهى لن تمانع ويمكننا أيضاً أن نلتقى بعد انتهاء مواعيد عملك فى المساء.

وقبل أن يتفوه بحرف واحد لاحقته قائلة فى تحد :

ــ هذا .. إذا كنت ترغب فى رؤيتى.

لم تفلح كل محاوراته معها .. اشتد وتلطف .. تقلصت أسارير وجهه وتراخت، اعترض فى تجبر وهدأ فى مذلة، حذر وتهاون، تحدث كثيراً وصمت طويلاً، هدد بالفراق وتدله فى حبها .. حاول أن يعدد لها عواقب تلك التصرفات، هالة صمتها وجرأتها .. كانت قوية

فى إصرارها، عنيفة فى قرارها .. لا ثالث بين أمرين أما الفراق أواللقاء، وعليه وحده إتخاذ ما يراه.

وقف مستسلماً وهو يستمع إلـى تفاصيل اللقاء، وكيف يسعى للتستر بقدر الإمكان وهو يتسلل إلى شقة صديقتها، وأن الأمر أبسط بكثير مما يتوقع، وبإن الليالى القادمة ستحمل لهما لقاءات هانئة.

أرتعدت شفتاه وهو يتساءل بصوت منخفض :

ــ متى أراك إذن.

قالت وكأنها تكافئه :

ــ سأنتظرك غداً فى العاشرة مساء.

لم يجدها أمامه، انطلقت تعدو مسرعة . وهو يقف يتابعها فى شلل واندهاش .. تركته دون أن تلتفت للوراء وكأنها توحى إليه بأن لا شيء فى جعبتها غير الذى سمعه منها، وهى لم تتعمد ذلك، لقد قالت كلمتها وأنشغلت بغيرها، فالشمس غابت وهناك أمور باتت أكثر أهمية بالنسبة لها تحتاج لتواجدها.

وما كادت تهبط السيارة الأجرة التى أوصلتها إلى المنزل حتى أنتهت من درجات السلم فى ثوان قليلة .. أتجهت مباشرة إلى شقة هدى، ولم يحتج الأمر منها أكثر من دقيقة .. أبلغتها بما يمكن أن يحدث غداً .. شعرت بإرتياح يغمر صدرها وهى تتلقى كلمات

الترحاب من جارتها، ولكن سرعان ما أكتأبت عندما دخلت إلى شقتها.. أحست بالتوتر يخيم على أسرتها الصغيرة، كان والدها متجهماً ووالدتها متحفزة .. انتقض قلبها هلعاً وهى تهمس فى نفسها.

.. لابد أن هذا الاجتماع خاص بى .

أخذتها الدهشة عندما لم ينتبها إلى وجودها .. كان حديثهما يطويه الغضب أقرب منه للعتاب .. 'الأب يلوم زوجته على المعاملة السيئة التى بدرت منها تجاه أقاربه، والأم تستنكر بعض التلميحات التى صدرت منهن. اطمأنت أحلام بأن الأمر بعيد عنها .. وجدت نفسها أكثر جرأة وثقة فى أن تتدخل، حاولت أن تقول شيئاً .. ولكن فارس ينهرها وهو فى هياجه، والأم تتصدى له بقوة لذلك التصرف كانت المرة الأولى التى ترى فيها والدها وهو يرضخ لثورة الأم، حلاً لها أن تستفيد من الفرصة إلى آخرها .. أسرعت إلى غرفتها تتحب فى دلال، ترامى إلى مسامعها وابل السخط الذى صبته أمها على أبيها .. تملكها الذهول .. فوجئت بأبيها يطرق بابها، يتقدم نحوها معتذراً برفق .. وجدت نفسها تبكى دون إرادة وبلا مشاعر .. أنسحبت الدماء من وجهه هلعاً عليها وأمطرها بقبلاته وهو يهدهد فى مشاعرها .. حاول أن يستميلها قائلاً :

ـ أذهبى إلى صديقتك هدى .. ربما تكونين فى حاجة للتغيير.

داعبت النشوة وجدانها وهى تجيبيه ببراءة .

ـ لا .. لن أذهب .. أنا أريد النوم فقط.

ــ لن أتركك إلا إذا صفحت عنى.

.. يــا إليهى ماذا حدث فى حيـاة أبـى ذلـك الجبـل العنيـد يقـف هكذا أمامى.

التفتت إليه بحنان باسمة :

ــ حقاً يا أبى أنا متعبة سأخلد للنوم بعد ما أرى جدى.

وبحركة طفولية ردد فرحاً كأنــه تذكـر فجـأة بـأن هنـاك إنسـاناً رابعاً يعيش بينهم وقد يكون عنده الخلاص من هذا المأزق :

ــ نعم .. نعم .. عليك بالذهاب إلى جدك ستجدينه فى غرفته.

اتجهت بهدوء إلى غرفة جدها ولم تغفل وهى فى طريقهـا أن تتبادل مع والدتها نظرة الرضى.

كان الجد قابعاً فى مكانـه أمـام الشـرفة كعادتـه .. التفـت إليهـا عندما شعر بوجودها قائلاً قبل أن تنطق :

ــ كيف حالك يا ابنتى.

ــ بخير يا جدى .. بخير.

لم تجد ما تقوله غير ذلك، وهو يرمقها بنظرة صامتـة، ولكنهـا مليئة بالمعانى الغامضة فتراجعت قائلة :

ــ أنعمت مساء يا جدى

وتركته إلى غرفتها .. لم يبدر منه حرف، غير أنه أو مأبرأسه عدة مرات وكأنه يتوقع منها ذلك.

كان الجد أمين ساخطاً على حياتها الجديدة والغريبة، ساخراً من كل المظاهر الفاسدة، دائم التحفز والتذمر.. لم يدع فرصة إلا واجتهد فى استغلالها من أجل التعبير عنه رفضه .. حاول كثيراً أن يستعيدهم لخطيرة الانتماء والعودة بهم إلى أغوار أصالتهم وواقعهم الحقيقى .. كانت فتحية أكثرهم صلابة ورفضاً لتصرفاته، اعتادت على الشكوى منه كلما أتيحت لها فرصة الانفراد بزوجها حتى هيأت لها الظروف لتنسحب فى قطيعة صامتة داخل المنزل، وذلك منذ اليوم الذى دعته فيه للغذاء بينهم وقدمت إليه طبقاً فى تودد قائلة :

ــ ما رأيك يا عمى فى الكاليلونى هذا .. حاول تذوقه قبل الشاتوبريان.

يومها أبتسم الجد ساخراً وهو ينظر إلى فارس قائلاً :

ــ رحمة الله على أمك يا ولدى كانت تسمى الكاليلونى بسذاجة عجيبة الفطائر باللحم المفروم ناهيك عن الشاتربريان كانت المسكينة بجهالة تسمية شرائح اللحم المشوى.

واعتبرت فتحية أن الإهانة موجهة لشخصها فباتت لا تحدثه إلا للضرورة ولاتدعوه إلا للمجاملة ولاتنفرد معه إلا مصادفة، ولهذا

هلل فارس عندمـا أبدت ابنته رغبتها فى التوجه إلى جدها ولكنه اضطرب ثانية عندما وجدها تتسجب هى الأخرى مسرعة إلى غرفتها، وتوقع من أبيه أن يكون قد أطلق سهام الغضب على أحلام مما دفعها للهروب من أمامه، ولم يستطع أن يصمد طويلا أمام نظرات فتحية وهى تحثه على معرفة ما حدث فاتجه بخطى بطيئة إلى غرفة أبيه وهو يجاهد فى أن يخفى اضطرابه أمامه ثم قال كالهمس :

ـ الا تأتى لمجلسنا يا أبى.

ـ ليتك تجلس معى .. فأنا أريد محادثتك .. هل تسمح ظروفك.

أخذته المفاجأة .. بدت منه التفاتة إلى زوجته ثم تقدم نحوه متردداً :

ـ بالطبع ياأبى فأنا فى شوق لحديثك.

استدار الجد فى جلسته ليواجهه ثم قال بحنان :

ـ أراك تنقطع كثيراً عن عملك يا فارس.

ـ فى الحقيقة يا أبى .. أنا أعيش فترة قلقة من حياتى .. فأنا بصدد أتخاذ قرار هام ولا أعرف أن كنت محقاً فيه أم لا.

راعته حيرة أبنه الوحيد وسارع متلهفاً بقوله :

ـ ماذا بك يا ابنى.

ـ أنا أفكر فى الاستقالة .. و ..

قاطعه مذعورا فى نظرة شعر بها تحرقه :

ـ ماذا تقول ؟ هل جننت .. تستقيل بعد هذا العمر.

ـ يا أبى الحياة فرص .. وأنا أمامى فرصة سأندم عليها طويلاً لوفاتتنى.

نهض مرتكزا على عصاه وهو لا يزال يحتفظ بثورته :

ـ أى فرصة تلك التى تجعلك تقدم على ذلك التصرف الأهوج.

ـ سأسافر أنا وفتحية وأحلام للخارج.

شعر بالحرج لاسقاطه أباه من حساباته فاردف متداركاً :

ـ يمكننا أن نعيش جميعاً هناك والحياة ستحلو لك يا أبى فى هذه البلاد المتقدمة.

تدخل صارخاً :

ـ كفى .. كفى هراء .. لقد فقدت عقلك يا فارس ... ولسوف تدفع الثمن.

ـ يا أبى إنها مجرد فكرة .. ولقد ..

ولكنه أمسك عن الكلام عندما استدار أبوه إلى شرفته وجلس كعادته يكتم غيظه ضاغطاً على رأس أبى الهول وهو يفركها بين أصابعه وكأنه يسعى لإصابتها بالدوار حتى لا ترى ما كان من احفاده.

ولم يجد فارس غير أن ينسحب هو الأخر بهدوء وهو يهمس متلعثماً :

ــ انعمت مساء يا أبى ..

وما كاد ينصرف حتى لاحظ أقتراب فتحية وأدرك إنها قد سمعت كل شىء .. فسكن برهة يستطلع فى عينيها تأثير ذلك الحديث، إلا أنه فوجىء بابتسامة مريحة تحمل معانى كثيرة يدركها .. ومدى تأثيرها عليه .. فأشار لها برأسه معبراً عن حيرته وهو يقول :

ــ أرأيت .. لقد ..

ولكنها استوقفته بإشارة من يدها .. واقتربت منه هامسة بدلال:

ــ لا تحزن يا حبيبى .. فانت تعلم حكم السن.

أومأ موافقاً وهو منكس الرأس، ثم اتجه إلى مقعده جالساً فى إعياء، بينما تركته فتحية لدقائق قليلة ثم عادت وهى ترتدى قميص نومها بلونه الأحمر المفضل إليه، ودنت منه وهى تمد إليه بكأس عكست مكعبات الثلج التى بداخله الضوء الخافت الذى أحاطته به وقالت :

ـ يا ترى إلى متى سيظل فارسى غاضباً.

أرتسمت ابتسامة ذابلة فوق شفتيه وهو يتناول الكأس من يدها، ثم حاول أن يجلسها بجواره ولكنها أمسكت بكفه ونهضت به وهى تتمايل برقة :

ـ لا .. لا اليوم لنا يا عزيزى.

ثم سحبته خلفها فى اتجاه غرفة النوم، وهو يتبعها مستسلماً لها ولنظرة عينيه التى راحت تسبح فوق قوامها المتماسك ثم همس فى نفسه مردداً :

.. أجل فاليوم لنا .



- ٤ -

الليلة باردة .. ولسعة الصقيع تلفح وجه عمرو، كأنها تصفعه بسياط الحقيقة .. لعلة يوقظ ذلك الضمير الراقد فى غيبوبته .. كان يسير بتلكؤ وإحباط .. حاول كثيراً أن يضع نفسه بين عذر تقبله أحلام، لا يريد أن يذهب، لا يتصور أن يحدث ذلك .. تمنى لو انفجرت السحب فوق رأسه لتصب سيولها وتعوقة عن المسير ولكنها ظلت ملبدة غائمة فى عناد لا ترغب فى الانصهار .. تفرس فى الوجوه لعله يجد من يتعلل به، ولكنهم جميعا غرباء .. داهمه احساس الاشمئزاز .. و .. الضعف.

خطواته مدمرة، شعر بها تحطم فى نفسه كل شىء .. أخلاقه ومبادئه، وكل إحساس بالجمال والصدق .. إحسها تمزق شرايين الانتماء التى تصله بأهله وقريته .. بدا غريباً حتى عن نفسه.

اقترب من حديقة المنزل بالهندسين .. أختلس نظرة إلى ساعته .. التاسعة والنصف مساء .. فكر فى العودة، السكون وظلمة المنطقة قضياً على تردده .. استمرد الفا إلى الداخل .. كاد يسمع نبضات قبله المضطرب .. تحسس بقدمه درجات السلم، أمتنع عن إضاءة النور، كأنه يتوقع أن يكون هناك من يتربص له .. أفزعه مواء قطة فى الظلام الحالك، توقف فى ترقب .. تصورها تلعنه ..

تراجع متعثراً إلى الخلف، كأنه تلقى لكمة قاضية على فكه، عندما اقترب من لوحة صفراء صغيرة. قرأ ما كتب عليها، فارس أمين .. توهم أنه يراه .. أسرع يضغط بأصبع مرتعش فوق جرس الشقة المقابلة، استجمع كل حواسه فى أذنيه.. لاشيء .. صمت قاتل، طواه إحساس بأنه يقف على أبواب مقبرة مهجورة .. لم يطل انتظاره .. ظهرت هدى يسبقها عطرها الأخاذ .. تأملته فى نظرة فاحصة .. ومدربة.

لم يجد ما يتفوه به ، سكن مبهوراً ومرتبكاً .. بدت فى عينيه كملاك رقيق خرج إليه من طاقة فى بطن السماء .. تساءلت فى همسة هادئة :

ــ من ...

ــ أنا ... عمرو.

كادت تسحقه لحظة الصمت التى سبقت إجابتها.

ــ أهلاً أستاذ عمرو .. تفضل.

كأنه فى حلم .. بخطوة واحدة انتقل من واقع إلى آخر .. سار خلفها وهو مسلوب القدرة حتى عن التفكير، لم يستطيع أن يقاوم رغبته فى أن يتلفت يمنة ويسرة، كأنه يدخل مدينة مسحورة كل ما فيها عجيب .. الأضواء السرية بألوانها المتداخلة واللوحات التى تكاد أن تنطق أمامه، الموسيقى الحالمة التى تنساب مع مياه النافورة الرائعة التى تتوسط الردهة.

جلس بإشارة منها .. وقابلته فى جلستها .. ثم قالت :

ـ سأنتظر قليلا ثم استدعى لك أحلام .. خوفاً من أن يكون قد رآك أحد .

أدرك خطورة موقفه .. وابتسم مستسلماً، بينما نهضت هى قائلة :

ـ ما رأيك فى شراب سريع .. نقاوم به هذا الصقيع.

رفع رأسه إليها .. ثم قال وكأنه مضطر للاجابة :

ـ أن كان طلبى لا يسبب لك قلقاً .. فانا أفضل الشاى.

ضحكت من قلبها .. وجدها فرصة لتأملها .. كانت رائعة، جميلة وانيقة .. ناضجة ومثيرة .. انتبه إلى كلماتها وهى تخطو متراجعة:

ـ لكل وقت مشروبه يا عزيزى.

لم تغب عنه طويلاً .. عادت وهى تمد إليه بكاسه قائلة :

ـ سأشرب معك نخب تعارفنا.

وقف وهو يحاول أن يخفى أضطرابه :

ـ لم أشربه من قبل أبداً.

دنت منه .. كأنها تحذره بعطرها.

ـ سيكون كرم منك أن تشربه لأول مر ة .. ومعى.

أخذه من يدها .. بدا كالقرد المسلى، يقلدها فى كل شـىء حتـى لا يبدو متخلفاً .. كلما رشفت من كأسها فعل فعلتها .. حتى السيجارة كلما اشعلت واحـدة امتدت يده ليأخذ مثلهـا .. تكررت منهـا كلمـات الترحيب وتعدد معها امتلاء الكؤوس .. تسللت بـه بعيدا عـن توتـره، فـى رحلـة حالمـة للتعـارف .. ثرثـر كثيراً عـن نفسـه وعـن علاقتـه بأحلام.. وكيف التقيا لأول مرة وكيف دغدغ الحب مشاعرهما .. وهى تتأملـه فـى هدوء مثير .. لا تتكلم إلا لكـى لكـى تحثـه علـى مواصلة الحديث .. ولا تتحرك من أمامه إلا لتمـلأ لـه كأسـاً آخـر .. ولا تبعد عيناها عنه إلا عندما يستسلم لجرأتـه ويتفحصـهـا بنظـرة أكثر جرأة.

شعر بالخجل عندما فاجأته قائلة :

ـ انتظرنى دقيقة .. سأبلغ أحلام بوجودك.

كأنه تذكر السبب لوجوده فى هذا المكان .. فأومأ برأسـه التـى أثقلت على جفونه وهو ينظر فى ببلاهة حتى توارت عنه.

إحساسه بالوحدة جعله يستعيد بعضاً من إتزانه .. جاهد فى أن يتأهب لرؤية فاتنته الحبيبة، وانتعشـت نبضـات قلبـه مـع تصـورة فـى جلسة هادئة بينه وبين أحلام.

انتفض واقفاً عندما ظهرت أمامـه أحـلام وهـى تسـعى إليـه بقميص نومها .. أسرع نحوها غير مبال بشىء غير رغبته فى تناول كفها بشوق متأجج .. وبادرها :

ـ أحلام .. لا أصدق ما يحدث حولى.

التهبت وجنتاها بحمرة الخجل ورهبة الموقف .. وهى تردد :

ـ يا حبيبى ياعمرو .. كنت أخشى الا تحضر .. لا تتصور مدى سعادتى .. فأنا ..

قاطعتها هدى قائلة :

ـ كفى .. كفى .. لايزال الوقت متسعاً لحديث الحب بينكما.

التفتت إليها أحلام مبتسمة :

ـ لا أعتقد .. أبى مستيقظ فى مكتبة ينهى بعض أعمال الترجمة .. وأخشى أن تحضر أمى لتؤنس وحدتها .. فتراك.

بدا الاحباط على عمرو وهو يقول :

ـ إذن .. من الأفضل أن انصرف الآن.

سارعت هدى قائلة وهى ترمقة بنظرة خاطفة :

ـ هكذا إذن ...

ولكن أحلام تحسم الموقف وهى فى اضطربها.

ـ لا أرجوك .. انتظر نصف ساعة أخرى .. فربما أستطيع الحضور بوسيلة أخرى.

قال متلهفاً :

ـ وأن لم تستطيعى ..

شعر بأنفاسها تلفح شفتيه وهى تقترب منه أكثر :

ــ إن لم استطع .. ساراك بعد غد .. هنا .. سيكون فى بيتنا حفل لاستقبال بعض الزوار .. وطبيعى ستكون أمى منشغلة بهم.

سحب نظرتـه علـى جسدها .. أكتشف لأول مرة إنهـا نحيفـه أكثر مـن الـلازم، وبـلا إرادة تحـول بعينـه فـوق قـوام هـدى النـاضج الممشوق وكأنه يعقد مقارنة حاسمة بنظـرة واحـدة .. وبدهـاء فطـرى استجابت هدى لتلك النظرة، بينما واصلـت أحـلام وهـى لا تـزال فـى إرتباكها :

ــ ماذا قررت يا حبيبى.

ــ سأنتظر ... سأنتظر يا غالية.

فوجىء بها تقبله قبلة خاطفة كالطفلة التـى سـعدت بقطعـة مـن الحلوى، ثم التفتت إلى هدى ممتنة.

ــ لن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت يا صديقتى

ثم هرولت مسرعة .. وهـو يتابعهـا بنظـرة تـأكد مـن خلالهـا بأنـها أكثر نحافة مما تصور.

أتجه إلى مجلسه الأول قبل أن تتصرف أحلام، كانت خطواتـه أكثر جرأة هذه المرة .. وما كاد يجلس فوق معقده حتـى صـاحت بـه هدى بعد أن ودعت صديقتها :

ـ انتظر ..

اقتربت منه فى هدوء .. ثم قالت :

ـ ألم تشعر بالملل .. ما رأيك لو جلسنا فى مكان آخر.

وقف مطيعاً دون أن يصدر منه تعليق .. فتناولت يده وسحبته وراءها إلى ركن آخر فى نهاية الردهة الواسعة .. شعر كأنه يتقدم نحو مغارة يحيط بها الغموض ، تسلل من داخلها أضواء خافتة ترتعش مع نغمات أكثر هدوءاً.

و .. التفتت إليه قائلة :

ـــ ما رأيك لو جلسنا هنا .. انتظرنى حتى أحضر كؤوسنا.

فوجئت به يلحق بها قائلاً :

ـ سأعاونك.

ــ لا .. لا .. استرح أنت.

ثم ركزت نظرتها إلى عينيه واردفت :

ــ ربما أحتاج إلى معونتك فى أشياء أخرى.

تكرر إختفاؤها من أمامه عدة مرات وهى تعد التجهيزات اللازمة لجلستهما، ولكنها فى المرة الأخيرة توارت عن نظره ولم تعد .. راوده القلق قليلاً حاول التخلص منه من خلال عدة كؤوس فى جوفه .. أرتاب فى أن يكون الخيال قد بدأ يعلب برأسه وجعله يرى

تخيلات أمامه فى صورة حورية فاتنة تختال برداء شفاف بلون الموج.. ادرك أنه لا يحلم .. كانت حقيقة .. بدت هدى فى صورتها الجديدة بعد ما بدلت ملابسها وكأنها نجمة ضلت طريقها فى السماء وهبطت أمامه على أرض الواقع .. كل شىء فيها يسبقه بريق يأخذ الأبصار .. وعند اقترابها منه اكثر .. أحس بأنها قد سلبت عقله أيضاً لم يستطع أن يوقف طوفان رغباته فى التنقل بنظرة على جسدها المشكوف أمامه.

لم تهتم كثيراً لوقاحته الغريبة وجلست بالقرب منه وهى تهمس:

ـ هل تأخرت عليك.

ـ حديثنى عن نفسك.

أطلقت زفرة طويلة من صدرها شعر بها تستقر على وجهه وهى تذوب فى رائحة الأنوثة الفياضة .. ثم قالت :

ـ أنا إنسانة عادية .. اعيش فقط .. بلا ماضٍ أحزن عليه، ولا حاضر أخاف منه .. تزوجت وطلقت .. لى معارف كثيرة، ولا صديق واحد .. انفق أموالاً كثيرة دون أن أشعر بالاستمتاع بها .. يئست من العثور على الحب .. فتوقفت عن البحث عنه .. دربت نفسى ألا أقدم على شىء إلا إذا كنت أرغب فيه.

ثم دنت برأسها نحوه واستطردت :

ـ ودائماً ما أحصل عليه.

ـ أنت واثقة تماماً من نفسك .. ألا تشعرين قط بالخوف.

ابتسمت فى دلال قبل أن تجيب :

ـ أشعر به فى حالة واحدة .. أن أفقد شيئاً أرغب فيه.

ـ أنت غريبة حقاً.

ـ أبداً .. الغريب أن نحرم انفسنا دون وجه حق من أشياء ستشعرنا بالمتعة.

تنهد فى حسرة ثم قال :

ـ الظروف تختلف من إنسان إلى آخر .. فليس كل ما يرغبه الإنسان يمكن أن يحققه.

عبثت بأصابعها فى شعرد وهى تردد :

ـ المهم أن ترغب .. هناك الكثيرون الذين يدفنون رؤوسهم كالنعام ليهربوا من الحقيقة والواقع، بالرغم من أن فى استطاعتهم أن يحققوا كل شىء .. بشرط أن يرغبوا .. يرغبوا فقط.

أحسست بالغيظ يضغط على صدرها وهو يقول :

ـ خذى أحلام مثالاً .... أنها ...

قاطعته بدهاء :

ـ ماذا عن أحلام .. فهى عندما ارادت حققت ما تريد .. وأحضرتك إلى هنا.

ـــ الظروف حتمت عليها أن ..

قاطعته مرة أخرى بحدة :

ـ وأين كانت الظروف فى السابق .. فلا شىء تبدل .. غير إنك هنا فقط .. لأنها رغبت فى ذلك، وأنت أيضاً رغبت هذا.

سيطر الصمت عليهما .. وراح فى غفوة مع نفسه، كأنه يعيد حساباته مسترجعاً كل الأحداث الماضية لعله يجد فى فكره ما يجعله يجيبها .. وشعر بحديثها يتمكن من مشاعره تماماً متغلغلاً فى أعماقه وكيانه، وجد نفسه سعيداً بنبضات الجرآة التى بدأت تعلن عن نفسها فى جوف عروقه.

أدار وجهه نحوها مستسلماً لدفء أنفاسها القريبة منه، والتقت عيناه بنظرتها فى حديث صامت لم يقطعه غير همستها المرتجفة.

ـــ هل ترغب فى شىء.

لم يجبها .. والتقى معها فى قبلة طويلة .. منحته فيها من خبرة شفتيها وعذوبتها ما أفقده صوابه .. لحظات ماتت عندها كل الذكريات .. بات مثلها بلا ماض وأيضاً بلا .. أحلام.

ضمها إلى صدره بقوة كأنه يدفنها فى كيانه وهو غارق بين شفتيها، ولكنه فجأة يدرك أنه على حق .. فليس كل ما يرغبه الإنسان يمكن أن يحققه، وذلك عندما انسحبت مرة واحدة من بين ذراعيه وهى تستعيد أنفاسها قائلة :

ــ كفى ..

دفن إحساسه بالخجل فى عدة كؤوس متتالية، جعلته مهتزاً فـى وقفته .. وزاد من دواره ملاحظتها وهى تقول :

ــ يا إلهى .. الساعة الثالثة صباحاً.

كاد أن يسقط مترنحاً عندما حاول أن يخطو إلى غير هدف.

ولكنها لحقت به وأجلسته ثانية .. ثم قالت :

ــ أنتظر لحظة .. سأستعد لأوصلك بسيارتى.

نهض منزعجاً .. حاول أن يتقدم بعدة خطوات ولكنـه فشل .. بدا كالغصن اللين الذى تعبث به رياح ليلة عاصفة.

أسرعت إلى غرفتها وهى تردد :

ـ لن أتأخر عنك .

ظهرت مرة أخرى وهى مستترة تحت معطف ثقيل، ثم تابطت ذراعه وهى تحثه على الصمت حتى لا يشعر بهما أحد.

كانت السيارة تقطـع الطريـق فـى سـرعة خارقـة وهـو يسـتقبل على وجهه اللفحات الباردة من النافذة .. وبين اللحظة والأخر يختلـس نظرة نحوها وهى تقود السيارة دون أن تلتفت نحوه .. حاول أن يقول شيئاً ولكنه توقف عندما شعر بعدم استجابتها للحديث .. كان يرشـدها إلى الطريق إلى منزله وهـى تتحـرك حسـب إتجاهاتـه دون أن تتبس

بكلمة واحدة .. وعند إقترابه من ميدان العباسية أشار إليها بالتوقف، وقبل أن يقول شيئاً سارعت هى قائلة بصوت حنون سرى دفئه فى كيانه :

ــ لا تنسى .. أن تنسى.

أومأ برأسه المترنحة، فترقرت على شفتيها ابتسامة هادئة .. وقالت:

ــ إذا تحقق هذا .. فسأكون سعيدة جداً أن أراك حسب موعدك مع أحلام.

وانطلقت بسيارتها متوارية داخل ظلمة الليل.

بينما بدأ عمرو يخطو بخطوات متعرجة وهو لا يكاد يرى شيئاً أمامه غير صور باهتة لأحداث ليلة من ليالى الأساطير.

اندلف إلى الشارع المؤدى إلى منزله .. الريح شديدة تعصف بالأشياء فوق الأرض. المكان مظلم فى سكون موحش .. حاول أن يسرع من خطواته، كاد أن يسقط، عند البوابة رفع رأسه إلى أعلى .. شعر بالإضطرب.. أدرك أن بشرى تنتظره، لا مناص إذن من المواجهة .. تسلل إلى نفسه إحساس بالندم .. ما كان يجب أن يتأخر إلى هذا الوقت .. حتماً ستخبر عمه .. بماذا سيتعلل.

بدأ يصعد درجات السلم فى تؤدة غير مصطنعة، فقدماه خائرة القوى .. سمع حشرجة الباب وهو يفتح من أعلى، تصورها حشرجة

فى صدره .. أقترب من الدور الذى تقف عنده بشرى، وجدها تنتظره فى ذهول .. ثم أسرعت إليه عندما لاحظت أعياءه وهمست فى لهفة صادقة :

ـ ماذا بك يا عمرو .. ما الذى.

قاطعها وهو يواصل صعوده فى مكابرة :

ـ لاشىء .. لا شىء ..

وما كاد أن يتجاوزها بدرجات قليلة حتى تعثرت قدماه فسقط بكل ثقله المتهالك على الأرض .. لحقت به فى فزع وعاونته على الوقوف وهو متكىء على كتفها وعاود الصعود وهو يجاهد بكل الوسائل لكى لا تلحظ عليه أمراً يكشفه.

دخلاً غرفته فى النهاية، وأجلسته على الفراش وهو منكس الرأس، غائب فى دوامة مع أفكاره المشتتة .. كان كالحالم.

وقفت لحظة أمامه تراقبه، بدأ عليها الانزعاج بوضوح، وكأنها تبينت حقيقة أمره والسبب فى حالته تلك .. وفى أصرار تساءلت :

ـ أين كنت يا عمرو.

أدار وجهه تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار كأنه يخفى عينيه عنها .. ثم أجاب :

ـ كنت عند صديق لى.

ـ كدت أجن لتأخرك هذا .. أحمد الله إن عمك سافر اليـوم إلى البلد.

نظر إليها بعينين مرهقتين .. تبين صورتها بصعوبة كبيرة .. ثم تساءل :

ـ ما الذى جعلك تنتظرى إلى تلك الساعة المتأخرة.

ـ أنت تعلم أن لا أحد يجعلنى أنتظر حتى هذا الوقت سواك.

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة استطردت متسائلة :

ـ لست أدرى كيف ستذهب إلى عملك وأنت فى هذه الحالة .. سأطلب لك أجازة وأنا هناك ..

قاطعها وهو يغالب الإرهاق :

ـ لا .. لا .. كـل مـا أرجـوه منــك أن توقظينـى معـك لنذهب سوياً.

ـ إذن .. هيا للنوم ولا داعى لأن تبدل ملابسك.

وضغطت على كتفيه ليستلقى على الفراش، وسحبت فوقـه الغطاء حتى أسفل ذقنه ثم قالت بحنان :

ـ تصبح على خير

وكأن الدنيا قد قلبت رأساً على عقب .. وفى ثوان تأججت في صدره رغبات كالبراكين، وتذكر كلمات هدى وهى تسأله عما يرغب .. اقتربت صورتها تماماً .. أو تصورها أنها هى .. وفجأة جذب بشرى من يدها بقوة، غير من وقفتها إلى جواره، وراح يمطرها بقبلات عنيفة وهى تردد فى ذهول :

ـ ما الذى تفعله يا عمرو

ـ وكأنه قد فقد عقله تماماً، لم يعد ينصت إلى شيء سوى نداء شهوته الجامحة .. بدا كالوحش الجائع الذى طال تربصه لفريسته وأخذ يفتك بها ليطفيء لهيب حرمانه.

انتبه على صفعة قوية كادت أن تفقأ عينيه بضربة عنيفة من يد بشرى التى قفزت من جواره هاربة، وتاركة صدى صوتها وهى تردد فى بكاء أقرب إلى النحيب :

ـ مستحيل .. مستحيل

كانت تقفز فوق السلم بلا وعى ودموعها تتقاطر من بين جفنيها، دخلت شقتها وهى تلملم شتات ملابسها التى مزقتها أصابع عمرو الثائرة.

وفى غرفتها ألقت بنفسها فوق الفراش وهى لا تزال تنتحب من هول المفاجأة. سلطت عينيها إلى أعلى، كأنها تحاول أن تراه .. تمنت أن تنفذ نظرتها من الجدار لعلها تراه.. أو قد تجد إجابة لديه عن ذلك التصرف :

... أين كان يقضى وقته حتى تلك الساعة المتأخرة .. ومع من .. هل كان مع صديقه حقاً .. ومن هو .. أيمكن أن يكون مع إمرأة .. ومن هى ؟

تقلبت على الفراش والحيرة تلعب بمشاعرها، ثم غابت من جديد مع أفكارها :

.. ما الذى جعل عمرو يقدم على هذا التصرف معى .. أهو الخمر، أم أكتشف حقيقة مشاعرى نحوه .. هل تصورنى إنسانة أخرى .. أم أنه حقاً يحبنى..

جلست فجأة وهى تتكىء على مسند الفراش .. ثم رفعت رأسها مرة أخرى إلى أعلى وقد راودها الاحتمال المحبب إلى قلبها .. ثم همست فى نشوة :

.. يحبنى ..

.. أحقاً يفكر فى ؟

ولم تخب ظنون بشرى .. فلقد كان عمرو فى تلك اللحظة يفكر .. ولكنه لم يكن يفكر فيها وحدها .. كان يفكر فيما سيحدث بعد عودة عمه من البلد .. فهى لن تتوانى عن أخباره بتفاصيل ذلك التصرف المشين.

كان يقطع غرفته ذهاباً وياباً وهو حائر من موقفه .. خجلاً من تصرفه، لا يعرف كيف سيواجه عمه الذى دأب على رعايته

سنوات طويلة .. أهكذا يكون الاعتراف بالجميل .. تمنى لو سحقته تلك الصفعة بدلاً من أن تفيقه .. أدرك بأن عليه أن يتخذ قراراً .. أى قرار .. المهم أن يجد لنفسه مخرجاً لهذا المأزق .. توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً هاماً .. وهمس فى صدره :

.. يا إلهى .. ماذا أفعل .. أى خطيئة قد أرتكبتها مع ابنة عمى .. يا للكارثة، ليتنى فقدت حياتى قبل أن أفقدها بتلك الصورة .. تراها ستغفر لى .. مستحيل .. لن تغفر، وإن فعلت هى إلى أين ساهرب أنا من جريمتى ..

استدار إلى النافذة وأزاح عنها الستارة المدلاة فوقها .. فوجىء بسيطرة الفجر على الأفق .. شعر برجفة تسرى فى جسده .. سويعات قليلة وتصبح فعلته على ألسنة أفراد العائلة بأكملها.

وبهدوء كبير أتجه إلى حقيبة الملابس وبدأ يجمع بداخلها كل ملابسة وهو يذرف دمعه صامتة شعر بها تتساب إلى أعماقه .. ثم توقف برهة يدير فيها عينيه حوله يمسح الغرفة بنظرة حانية، ثم استدار متخاذلاً، وهبط السلم بخطوات حثيثة.

ولأول مرة يشعر عمرو أنه غريب على طريق اعتماد السير عليه مرات ومرات، وغريب عن كل شىء حتى عن نفسه.

استوقف سيارة أجرة، واتجه بها إلى محطة باب الحديد، وهناك أهتدى بعد رحلة غير طويلة على فندق متواضع واستطاع أن

يحجز لنفسه غرفة أكثر تواضعاً تـرك بهـا حقيبـة ملابسـة .. ثم عـاد مرة أخرى للطريق سائراً بين المارة كأنه يحتمى بهم.

وكانت المفاجــأة أكبر مـن توقعاتـه عندمـا وصـل إلـى شـركته وفوجـىء ببشـرى تجلس وراء مكتبها كعادتها .. حـاول أن يـتراجع كأنه تذكر أخيراً أنها تزامله فى الشركة، ولكنه لـم يفلـح بعدمـا التقت عيناه بنظرتها الراضية فى هدوء مما شجعه على التقدم.

ـ بشرى .. أرجوك أمنحينى فرصـة الحديث معك بعد إنتهـاء عملك .. وسأعتذر أنا عن الفترة المسائية.

أزعجه صمتها .. ولكنه أردف بالحاح :

ـ أرجوك يا بشرى .. وبعدها سأبحث عن عمـل آخـر .. كمـا بحثت عن مسكن آخر.

وهنا بدأت أسارير التوتر على وجهها وهى تقول :

ـ ماذا قلت ؟ .. مسكن آخر ؟

لاحقها مستعطفاً :

ـ أرجوك أقبلى .. ستمحينى الفرصة .. أليس كذلك ؟

أومات برأسها موافقة وهى مشفقة على حالة المضطرب.

كان منكس الراس وهو يسير بجوارها بعد أنتها فترة العمـل الصباحية .. حاول بكل الطرق ألا تلتقى عيناه بنظرتها. بينما جاهدت

بشرى لكى تخفى إحساسها بالنشوة والسعادة .. فتلك هى المرة الأولى التى ينفردان فيها معاً فى مكان عام .. شعورها بأنهما يسيران نحو مكان بعيد عن كل العيون .. بعيداً عن أبيها وعن جيرانهما .. جعلها سعيدة .. بدت شاردة تحلم بما سيصارحها به عمرو .. كان الصمت محببا لكليهما .. هو مشحون بالخجل والتوتر .. وهى تستعذب توقعاتها على أجنحة الأمانى والآمال.

وداخل الكازينو أختاراً مكاناً منزوياً وجلسا متقابلين حول مائدة تكاد تحتفى تحت أفرع كثيفة لشجرة طالت بها السنون حتى أنحنى جذعها.

وما أن شعراً بالأمان، وبات من المحتم أن يقطع أحدهما الصمت. لم يجد عمرو مناصاً من أن يرفع عينيه نحوها وإذا به يزداد اضطراباً عندما لاحظ وجنتيها وهى تذوب فى حمرة الخجل .. وما فتئت أن تحولت تلك الحمرة إلى دماء تنزف من قلبها فى حسرة حبيسة .. ذبحت من خلالها كل أحاسيس التفاؤل والتمنى، بينما كان عمرو يسرد عليها كل شىء عن حياته الخاصة. وهو لا يدرى أن كل حرف ينطق به يتحول إلى سهم مسموم يمزق بنصله أحشاء قلبها .. كان يبحث عن مبرر يتعلل به لتصرفه بالأمس لعلها تغفر له فعلته، فراح يخرج من صدره اسرار كثيرة طال سجنها فى أعماقه، حدثها عن أحلام وحبه العميق لها وكيف عاش طوال السنوات الماضية وهو يأمل فى أن يتوج ذلك الحب الكبير بزواجه من أحلام .. وكيف سهر

الليالى وهو يئن تحت قبضة الحرملن واليأس والخوف من أن يواجه أباها فيقابل بالرفض الأكيد.

وأخذته النشوة وهو يؤكد عليها كأنه يفشى سراً ستسعد به قائلاً:

ـ من أجل هذا قررت العمل فترتين .. حتى أتمكن من التقدم إلى أبيها.

ثم واصل كلماته دون أن يهتم بما طرأ على وجهها من أسارير الحزن وما برق بين جفنيها من قطرات دمع حبيسة، تصورها أضفاقاً عليه وعلى قصة حبه الرائعة، مما دفعة لكى يسترسل فى أدق أمور علاقاتهما حتى وصل فى نهاية الحديث إلى حادثة الأمس وأسبابها، وكيف كان مخموراً بالعشق ومسحوراً بالانبهار لما رآها فى شقة هدى .. بأنه كان مسلوب الإرادة والعقل وأن تصرفه معها كان بلا وعى وبلا تقدير للمسئولية.

ومرة أخرى أشاح بوجهه عنها وهو يتعلثم قائلاً :

ـ لقد ذكرت لك الحقيقة .. وأرجو ن أجد عندك الصفح والمغفرة.

بدت مثيرة فى هدونها وهى تتفحص وجهه مما شجعه على الاستطراد قائلاً :

ـ بشرى .. أنت تعلمين مكانتك عندى .. وأنت الوحيدة التى يمكننى أن أبوح لها بأسرارى وأن ألجأ إليها لأشرح همومى .. أنت الأمان بالنسبة لى .. و ..

ولكنه توقف عن الحديث برهة منزعجاً لدموعها التى أنسابت بهدوء بعدما عجزت عن الاحتفاظ بها كثيراً بين جفونها .. ثم تساءل فى بلاهة :

ــ ماذا بك يا بشرى .. اتبكين ؟

سارعت تمسح وجنتيها بأصابع مرتعشة وهى تردد بصوت هزيل :

ــ لاشىء ... لا شىء ...

ثم نهضت وهى تخفى توترها وأردفت :

ــ يجب أن أعود الان حتى لا أتأخر .

سار بجوارها مستسلماً فى انتظار قرارها الذى سيحدد مصيره فيما بعد، ولم يستطع فى النهاية أن يتحمل قسوة الصمت على أفكاره المشتتة فبادرها قائلاً :

ــ للآن لم أحظ منك بكلمة ..

التفتت إليه وهى ترمقة بنظرة تحيط بها غشاوة الحزن .. وأجابت :

ــ إذا كنت تقصد حادث الأمس .. فأنا نسيته تماماً.

ابتهجت أساريره وهو يردد :

ـ لا تتصورى كيف رفعت عن صدرى هموماً ثقيلة .. فأنا ..

قاطعته وهى لا تزال تحتفظ بنظرتها إليه :

ـ المهم أنك شعرت بالارتياح .. فلا تبال إلى أين استقرت تلك الهموم بعد ذلك ..

ابتسم فى برود بعدما عجز عن فهم مقصدها وازداد سعادة عندما استطردت وهى تبعد عينيها عن وجهه :

ـ لا تنس أن تعيد حقائبك.

صمت برهة، تأملته فيها بحرص كبير ثم قالت :

ـ فالأمر لا يعدو كونه سوء فهم .. وعلى ما يبدو أنه من ناحيتى فقط.

انفرجت أساريره وهو يتساءل :

ـ هل تعديننى باستمرار صداقتك لى إلى الأبد ؟

ـ أعدك بهذا .. إذا سمحت الآنسة أحلام بذلك.

ثم استدارت تجر فى خطواتها المنهارة، وتركته يقف وحيداً يتابعها فى دهشة بلا وداع.

★ ★ ★

- ٥ -

كانت الحركة غير عادية فى شقة فارس أمين، لم تكن من أجل بعض الترتيبات الخاصة بالحفلات المعتادة، ولا من أجل الاستعداد لاستقبال توفيق بك رئيس مجلس إدارة الشركة الذى تعددت زياراته فى الفترة الأخيرة، ولكن من أجل شيء آخر، جعل من فتحية تتلمس فى ظل زوجها وهى تكاد تذوب تدلها فى كيانه، بينما تشرف أحلام على كل أحتياجاته بسعادة بالغة .. فاليوم موعد سفره إلى إيطاليا، وبالرغم من أنها ليست الرحلة الأولى بعد أن قبلت استقالته من عمله إلا أنهما فى كل مرة يحسبان لهذا الموقف أعظم الحساب، كانت بالنسبة لهما طقوس التفاؤل لما يستتبع تلك الرحلة المعتادة من هدايا تفوق كل طموحات خيالهما، وهو أيضاً أدرك بخبرته بأنها فرصته الأكيدة لينال من أهتمامها ورعايتهما الزائدة والتى لا يحظى بها طوال فترة إقامته بلا رحلات.

كان سعيداً وهو يدور برأسه ليتلقى طلباتهما التى تفوح منها رائحة الأمر، والتحذيرات بألا ينسى هذه المرة الفرير الأبيض لفتحية وكذلك أشرطة الفيديو والباروكات وبعض البارفانات وكثير من

الملابس الداخلية التى ستلهب أعصابه وعليه أيضاً ألا تخونه ذاكراته بالنسبة لاحتياجات أحلام من أزياء الموضة وعدد من العدسات الملونة التى تستعملها فوق مقلتيها حسب ألوان فساتينها ...و...

أنفجر ضاحكاً عندما همست فتحية فى أذنه قائلة :

ـ لاتنس أحدث الفيتامينات أيضاً .. فضرب على صدره بيده وهو يزال يقهقه :

ـ أتعتقدين أننى لازلت فى حاجة لها ؟

ووجدتها أحلام فرصة لاقتحام لحظة الانسجام بينهما ثم قالت:

ـ بالمناسبة يا أبى أود أن أستاذنك للقيام برحلة مع هدى إلى الغردقة .. سنمضى ثلاثة أيام هناك مع بعض قريباتها.

حاول أن يصمت برهة ليتخذ قراراً بشأن طلبها ولكنه لم يفلح، بعدما التقت نظرته بعين فتحية، وكأنها تحرك لسانه بالشفرة، فسارع قائلاً:

ـ يجب أن تأخذى معك ملابس ثقيلة .

واستسلم بعدها للقيلات من جديد ولكلمات التمنى بقضاء رحلة ممتعة فى إيطاليا ..

وشعرت فتحية بأن من الواجب مكافأته فلحقت به قبل انصرافه قائلة :

ـ ألا تسأل عمى عن رغباته .. فربما ..

قاطعها فى استحسان :

ـ أنت دائماً هكذا يا حياتى .. تفكرين فى كل شىء ..

ثم أتجه مسرعاً إلى غرفة أبيه وهو يحمل حقيبته المعدة لسفره، واقترب منه متلطفاً فى عجلة من أمره وقال :

ـ لقد حان موعد سفرى يا أبى .. ألا تأمر بشىء أحضره لك من هناك ؟

التفت نحوه وابتسامة عريضة تستقر تحت شاربه الكثيف، ويلحظه صمت تفصحه من خلالها، ثم قال بنبرة مكلومة :

ـ أود أن تعود سريعاً لأرى عليك أحدث ما وصلت إليه موضة القمصان المزركشة.

اندفعت الدماء إلى رأسه حتى بدت وجنتاه كعرف الديك .. ثم أجاب متهالكاً وهو ينصرف من أمامه :

ـ باى ... باى ..

ـ وعليكم السلام ..

ولم تجد فتحية صعوبة لكى تدرك ما حدث بينه وبين أبيه، فتلقفته بين أحضانها تودعه وهى تربت على ظهره تهدهده كالطفل وهو يردد بغيظ مكتوم :

ـ لافائدة .. لقد حاولت أن ....

فتصمته بقبلة ثم أتبعتها بأخرى قائلة :

ـ لا تشغل بالك يا عزيزى .. يجب ألا تسافر وأنت مهموم .

ـ أنا قلق عليك .. وأخشى أن تتعرضى لضغوطه يافتحية.

ـ من أجلك يا حبيبى أتحمل مالا يطيقه أى إنسان .. هيا الآن حتى لا تتأخر.

وقفت تلوح له من شرفتها تودعه بينما، كانت تصيح به أحلام وهى تقف بجوار هدى فى شقتها وتحثه على ألاّ ينسى طلباتها، فهى لم تطق صبراً حتى ينصرف وهرعت إلى صديقتها تنقل إليها موافقة أبيها على القيام برحلة الغردقة، وبدأ الحديث يأخذهما إلى جمال الطبيعة هناك .. الانطلاق والحرية والسعادة .. مجموعة الأصدقاء الظرفاء، الوجهاء، الأثرياء .. الحياة والحب.

وبدهاء يفوق خبرة أحلام تساءلت هدى فى قلق :

ـ ولكن .. هل سيوافق عمرو ؟

أكتأبت فى خوف حقيقى وهى تقول :

ـ لست أدرى .. كم تمنيت أن يكون عمرو معنا حتى تستكمل سعادتى .. كل شىء فيه أقدسه ويثير إعجابى به، غير أنه لا يزال متقوقعاً داخل كهف التزمت والتقاليد .. و ..

ــ اسمعى يا أحلام .. قد يمكننى إقناعه بالحضور معنا.

قفزت نحوها تقبلها بفرحة كبيرة :

ــ أحقا يا هدى .. ليتك تفعلين هذا .. وسأكون أسعد إنسانة فى الدنيا كلها ..

ثم صمتت لحظة ذابت خلالها الابتسامة .. وقالت:

ــ ولكن .. إذا رفض .. ثم اتعتقدين أنه سيأتى اليوم.

سارت هدى بخطى متئدة تجاه النافذة وسحبت نظرتها إلى مالا نهاية ثم قالت كأنها تحدث نفسها :

ــ إحساسى يقول أنه سيأتى !

ثم التفتت إليها وهى تستجمع واقعاً من جديد قائلة فى فتور :

ــ عليك بالإنتظار مع والدتك .. وعند حضوره سأتى إليك لأبلغك .. وسأجد الحيلة المناسبة لكى تمضيا معاً وقتاً سعيداً.

وتحققت نبوءة هدى مع حلول المساء .. لم يخدعها إحساسها، وكأنها تملك قدره خارقة استطاعت من خلالها أن تسخرها لتحقيق

مآربها، وهى فى الحقيقة لم تكن تملك شيئاً غير مفاتنها التى خلبت عقل عمرو .. كان لديها إحساس قوى بأنه حتماً سيعود وستسوقه خطواته التائهة إلى عرينها، وتدفعة رغباته الحبيسة إلى حيث المجهول .. إلى العالم المسحور الذى يختزن الكثير من الغموض .. وهى تدرك أنه شغوف لفك طلاسمه، حتى ولو كلفه الأمر أن يقترب من الجحيم.

لم ترتعش أوصاله هذه المرة وهو يدق بابها .. لم يتلفت مذعوراً من أن يراه أحد .. كان واثقاً من نفسه .. وأكثر أتزاناً وهنداماً .. ولم تخطف الأضواء بصره عندما فتحت له الباب لتدخله .. كانت عيناه تستمتعان بدفء نظرتها إليه .. الدفء الذى تسلل إلى كل كيانه وهو يتبعها إلى حديث مجلسه الأول فى الزيارة الأولى.

وهى أيضاً استعدت لاستقباله بكل وسائل الانقضاض ..وكأنها اتخذت قرارها بأن تكون هذه الليلة هى ساعة الصفر للهجوم الكبير، فأسرته من الوهلة الأولى بنظرتها الحالمة .. وقيدته بسلاسل شعرها الناعم، وحاصرته بخطواتها التى دارت حوله كالنحلة وهو يتابعها بشوق فى انتظار لدغتها.. ودارت معها الكؤوس من جديد، والتهبت جفونه من حرارة لون فستانها الأحمر .. فتمنى فى حينها ألا يطلق أنفاسه حتى يمكن من الاحتفاظ بعطرها فى صدره .. أمور كثيرة تبدلت عن لقائهما الأول .. فلم يثرثر بشىء .. لا حديث بينهما يشوش على الأنغام الحالمة .. لا توتر يلقى به فى دوامات القلق .. لا

شيء سوى السكون، وحديث الصمت الذى تبارت فيه لغة العيون وتفوقت على كل الأساليب، بل وسيطرت عليها تماماً .. حتى كادت أن تصدق هى نفسها .. وبأنهما حقاً يعيشان قصة حب أقوى من أن يفرق بينهما أحد.

غير أنها عادت إلى الواقع عندما ترامى إلى مسامعها صدى رنين جرس الباب، وأدركت أنها على موعد مع فراق حلمها الجميل، عندما فوجئت بأحلام تسألها :

ـ هل حضر ؟ ..

وبلا إرادة أو تباطؤ أجابت :

ـ لا .. وأحمد الله أنه لم يحضر لأن معى ضيفاً من الاسكندرية.

استردت أنفاسها بعد أن أغلقت الباب فى وجه أحلام العابس، ثم بدأت تستجمع أسارير الفتنة على وجهها عند اقترابها من عمرو، الذى بادرها قائلاً فى بلاهة وغيبوبة :

ـ ألم تخبرى أحلام بوجدى ؟

ـ ظروفها لا تسمح الآن ..

أجابت باقتضاب دون أن تنظر إليه.

وبدأ إحساس الأمان يزحف رويداً إلى صدر عمرو.

وبدأت هى تزحف بأنفاسها إلى رئتيه، وإنهارت مقاومته تماماً تحت قبضة الظمأ والحرمان .. كاد أن يصرخ بعد أن أفاق من غيبوبة شهوته وهو راقد بجوارها على الفراش فى سلام .. كأنه فقد عذريته وهو متأثر بسكرة الخمر .. كأنه اكتشف فجأة أنه ضحية لمؤامرة دنيئة أسقطته فى الوحل .. ومع هذا لم يحاول أن ينجو بنفسه بعيداً .. ولم يستطيع مقاومة رغبته العنيفة فى أن يعيد الكرة من جديد ويغوص بارادته هذه المرة ليفرغ ما فى كيانه من بقايا حرمان.

أيقظه شعاع الشمس بلكزة خفيفة على وجهه، ليرى نفسه يحتمى بأحضان هدى لا يسترهما إلا غطاء رقيق حاولاً أن يخفيا أنفسهما به من عيون الليل.

تحشرج صوته وهو يهمس قائلاً :

ـ لقد سرقنا النوم .. ولا أعرف كيف سأذهب إلى عملى.

مسحت بشفتيها على صدره العارى..

ـ هل سعدت بليلة أمس ؟ ..

عاد يردد فى قلق :

ـ أخشى أن يرانى أحد وأنا منصرف من هنا.

أطبقت على فمه تقبله بنهم ثم همست :

ـ يجب أن تعتاد ألا تخشى شيئاً، طالما معك هدى و ..

صمتت برهة وهى تركز نظرتها فى عينيه واستطردت :

ـ وطالما أنت معى ..

ـ وأحلام .. هل ستخبرين أحلام .. أرجوك ؟.

انتفضت من جانبه وهى تضحك بملء رئتيها، وبدت أمامه عارية تماماً دون أن تغير ذلك اهتماما كأنه شيء عادى .. أوأرادت أن تفهمه بأنه عادى .. وازدادت فى قهقهتها عندما لاحظته وهو يبعد عينيه عنها .. ثم قالت ساخرة :

ـ المرأة هى المرأة يا عزيزى .. أما الوقت .. أو الظروف.. أو الفرصه .. فلا تشغل بالك بشىء ..

ـ لا أفهمك ..

دفنت نفسها داخل قميص النوم وهى تردد :

ـ هذا هو عيبك الوحيد .. على كل حال .. سأمهلك دقائق لتستعد وسأراقب لك الطريق إلى أن تتصرف.

لم يزل التوتر يلازمه حتى بعد أن ابتعد عن المنطقة بأكملها .. إحساسه بالخطيئة جعله يتوهم بأن عيون الدنيا تراقبهن وبلعنات أجداده تلاحقه.. بدا شريداً وهو ينتقل من طريق إلى آخر كأنه يبحث عن نفسه الضائعة والتى فقدها فى لحظة غيبوبة سعى إليها بإرادته.

توقفت السيارة الأجرة أمام باب شركته، لم ينتظر دوره في المصعد .. الساعة تشير إلى العاشرة والنصف .. ساعتان تأخير .. أنفاسه تتلاحق لاهثة وهو يقفز على السلم .. شعر بالارهاق يمتص قواه .. اندلف إلى مكتبه خلسه من عيون زملائه فوجيء باحدهم يستوقفه ويخبره بضرورة تواجده عند رئيس القسم، هرع وهو يحمل الاضطراب بين ضلوعه .. لم تسعفه كل الأعاذير من تحذيرات رئيس القسم .. علاد ليجلس وراء مكتبه وهو لا يكاد يرى الأوراق أمامه، سرت قشعريرة عنيفة فى جسده عندما ظهرت أمامه بشرى .. اقتربت منه وهو يراقبها بحذر، كأنه يحاول أن يقرأ ما يدور فى خلدها .. كانت شاحبة الوجه، بطيئة الخطى .. انتفض واقفاً وهو يحاول أن يبدو طبيعياً وبادرها :

ــ أهلاً يا بشرى .. صباح الخير.

ــ صباح الخير يا عمرو .. أنت ..

قاطعها متردداً؛

ــ كيف حالك يا بشرى .. أراك شاحبة ؟

ــ أين كنت يا عمرو.

أزدرد ريقة وهو يحاول مراوغة نظراتها التى تحاصره..

ثم أجاب :

ـ كنت .. كنت عند أحد أصدقائى.

صمتت .. تسلل بنظرة نحوها .. ترقب أن تعقب على إجابته .. ولكنها لم تفعل .. حدثته طويلاً فى صمتها .. شعر بأنه يفهمها، كأنه يسمعها .. وهى لا تزال واجمة أمامه .. اهتزت أهدابه بشدة عندما توهم بأنها ستقترب من الحقيقة.

حاول أن يشوش عليها أفكارها :

ـ أجلسى يا بشرى.

ـ جئت أخبرك بأن عمك سأل عنك .. ويريد أن يراك.

ـ عمى.

قالها منزعجاً .. بينما استدارت بشرى فى طريقها للانصراف .. أسرع وراءها بعد أن أفاق من صدمته .. استوقفها قائلاً :

ـ بشرى.

إلتفتت إليه وهى تغوص بنظرتها فى عينيه .. أزداد ارتباكاً من غموضها ثم همس بصوت خجول :

ـ كنت أريد أن أحدثك قليلاً بعد أنتهاء فترة عملك .. لن أعطلك كثيراً .. فإنا لدى الفترة المسائية .. و ..

ـ لن تحضر إلى المنزل اليوم أيضاً ..

لاحقها مؤكداً :

ـــ لا ... لا .. سأعود مباشرة بعد انتهاء العمل .. ولكنى أريد أن أحدثك قليلاً .. إذا لم يكن لديك مانع.

أومأت برأسها .. وانصرفت بهدوء.

كانت بشرى تشعر بأنها المسؤلة عن عذابها، وبأنها السبب فى خنق قصة حبها قبل أن تستمتع برحيق السعادة .. أحبته فى صمت .. افترضت فيه أنه يشعر بذلك الحب ويبادلها به .. تصورته يعيش معها نفس الاحساسيس الصامته .. اللوم على نفسها يؤرقها .. فهى فقدته فى لحظة بعد أن حرصت على حبه سنوات طويلة . وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تخلصه من المسئولية لما حدث. وكأنها لم تتوقع أن يكون من حقه أن يحب غيرها. لهذا بدأ الأمل يدغغ خيالها من جديد .. ساعات طويلة قضتها وهى تبحث عن كل الاحتمالات لمضمون حديثه.

هل جد فى الأمر شىء .. تراه سيعتذر عن تصرفه السابق مرة أخرى .. هل اكتشف أخيراً إنها تحبه.

دق قلبها بقوة مع دقات الساعة الثانية .. تلكأت وهى ترتب بعض الملفات .. أحست بأنها تطير من فوق الأرض وهو يقتحم مكتبها قائلاً :

ـــ هيا يا بشرى.

استقبلته ببشاشة، نفت نظره تورد وجنتيها وبريق السعادة الذى يحيط بمقلتيها .. سارت بجانبه تنصت إلى دعوته كأنها أروع الألحان التى سمعتها فى حياتها :

ــ ما رأيك لو تناولنا طعام الغداء فى مكان قريب.

بدت كالفراشة الهائمة وهى تهبط بجواره على السلم .. ترقرقت إبتسامة الأمل على شفتيها من جديد .. وهو أيضاً بدا متفائلاً لصفائها .. مازحها بكلمات كثيرة .. حاولا أن يتسابقا على السلم .. كادت أن تسقط، ولكنه يلحق بها وينقذها وهما غارقان فى الضحك .. لم يترك كفها .. ولكنها سحبت يدها برفق، خافت أن تحلم أكثر من ذلك فتصدق نفسها.

وقفاً أمام البوابة .. نظر إليها بسعادة حقيقية قائلاً :

ــ الآن .. إختارى أنت المكان.

أجابت ضاحكة :

ــ انت صاحب الدعوة .. وعلى كل حال سأتولى أنا الأختيار وأنت مهمتك الدفع.

ما كاد يتقدم خطوة واحدة بجانبها حتى توقف فجأة، وكأنه تجمد فى مكانه أوصعقة ماس كهربى فى لحظة .. شعر بالأرض تموج تحت قدميه وعقله ينضغط إلى حد الانفجار.

سارعت بشرى تسأله :

ـ ماذا بك يا عمرو

ولكنه لم يجبها وظل على حاله وهو يتابع خطوات أحلام وهى تقترب أكثر فأكثر نحوه، كأنه آثر أن تحدث الكارثة دون مقدمات أوأنه عجز فعلاً عن تفسير ما يحدث .. وما أن دنت منه حتى بادرته متلهفة دون أن تعر بشرى إهتماماً :

ـ أين أنت يا عمرو .. لقد أنتظرتك طوال ليلة أمس.

وبصعوبة بالغة حاول أن يقول شيئاً .. ولكنه لم يفلح بغير بعض الهمهمات غير المفهومة .. فأردفت ثانية :

ـ لقد انشغلت عليك كثيراً .. وجئت لاطمئن بنفسى قبل سفرى..

اختلس نظرة سريعة إلى بشرى ثم قال متلعثماً :

ـ أقدم إليك بشرى .. و ..

قطعته باقتضاب وهى ترمقها بنظرة غير مبالية :

ـ أهلاً .. المهم أنت أين كنت .. هيا نجلس فى أى مكان هنا .. فأنا ليس أمامى غير ساعة واحدة ولابد من عودتى بعدها لأستعد للسفر.

سكن حائراً فى صمت وهو يرقب أسارير الدهشة والأسى التى سيطرت على ملامح بشرى، التى وقفت بدورها تتلفت حولها تبحث عن أى وسيلة تنتشلها من ذلك الموقف الرهيب على قلبها.

أنتبه على اصرار أحلام وهى تقول :

ـ هه .. ماذا قلت .. إلى أين سنذهب

وقبل أن يتفوه بكلمة، فوجىء ببشرى تزحف بخطوة للوراء قائلة :

ـ هل تسمحان لى بالإنصراف ... لقد ..

ولكنه قاطعها وهو يذوب توتراً :

ـ أبدا .. ستأتين معنا .. أقصد ..

وسرعان ما انسحبت الدماء من وجهه على أثر كلمات أحلام :

ـ لا تضغط عليها يا عمرو .. فربما كانت مشغولة حقاً ..

ولم تسطع بشرى أن تقاوم رغبتها فى أن تملأ عينيها منها، ومضت لحظة قاسية أستطاعت من خلالها أن تتبين ملامح وجهها جيداً .. ثم قالت موجهة كلماتها لعمرو :

ـ حقا .. لاتضغط على أكثر من هذا .. عن إذنك وتركتهما منصرفة وهى تسحب مع خطواتها اثقال خيبة الأمل مرة ثانية.

سيطر الوجوم على عمرو وهو يتجه إلى الكازينو برفقة أحلام .. تساءل بينه وبين نفسه عن سبب توتره وارتباكه .. وعن إحساس الضيق الذى تسلل إلى صدره نتيجه لهذا الموقف، ولماذا لم يسعد بلقاء احلام مع بشرى .. شعر لأول مرة بشىء يجذبه بقوة للتفكير فى تصرف بشرى وبإحساس يحول كل اهتمامه تجاهها .. اقتحمت أحداث مضت ذاكرته .. رآها وهى تنتظره فى كل ليلة .. وهى تهتم بشئونة .. تذكر الدمعة الحائرة التى كانت بين جفنيها ولم يدرك لها سبباً فى ذلك الوقت.

كانت صورة بشرى تلازمه فى الحاح غريب .. و ..

انتبه مرة أخرى لأحلام وهى تنهى حديثاً طويلاً لم يسمعه :

ــ ما رأيك فى هذا الموضوع

ــ أى موضوع

أخذتها الدهشة وهى تقول :

ــ إذن أنت لم تكن معى .. ترى ما الذى يشغلك .. فأنا لى أكثر من عشر دقائق وأنا أحدثك .. أين ذهبت بخيالك.

حاول أن يبدو طبيعياً وهو يجيب :

ــ لا أبدا .. ماذا كنت تقولين ؟ .

ـ سأسافر اليوم إلى الغردقة .. سأمكث هناك أربعة أيام .. ما رأيك لو تأتى معنا؟ .

ـ ليس بإمكانى .. وحتى لو استطعت .. فكيف سأذهب معك وأنت بين عائلتك.

ضحكت فى ميوعة :

ـ لا .. سأكون مع هدى..

جحظت عيناه منزعجاً :

ـ ماذا قلت .. هدى .. كيف ستسافرين معها وحدك .. ألا يكفى رحلتك الغريبة معها بالاسكندرية .. أقصد .. أراك لا تبدين أى أهتمام بدراستك .. أنت أصبحت تأخذين الأمور باستهتار غريب..أو..

ارتفع صوتها فى حدة قليلاً :

ـ عمرو .. ماذا بك .. أراك تفتعل ثورة دون مناسبة .. كنت أعتقد أنك ستسعد بهذه الرحلة .. على الأقل سنكون معاً فى حرية كاملة..

تمالك غيظه وهو يقول بصوت مكتوم :

ـ وعملى .. ألم أقل لك إنك أصبحت تستهترين بأمور كثيرة .. ألم تسألى كيف سيمكننى الانقطاع عن عملى أربعة أيام مرة واحدة..

وضح الاستياء على وجهها وهى تردد كأنها تحدث نفسها :

ـ عملك .. أتعتبر هذا الهلاك الذى أنت فيه عملاً .. ألا ترى الناس حولك كيف يعيشون .. ستظل حبيس مكتبك طوال حياتك مقابل بضعة جنيهات لا يمكننا من خلالها أن ...

وجدها فرصة لينفس عن غظيه واضطرابه :

ـ إنى أعمل فترتين همست فى محاولة لتهدئته :

ـ يا عمرو الدنيا تغيرت .. يجب أن تكون تصرفاتك وتفكيرك أكثر عصرية .. لن تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة طالماً أنت على هذا الحال.

ضرب بقبضة يده على المائدة صارخاً :

ـ وماذا تريدينى أن أفعل .. هل أسرق .. أم ..

ـ يا حبيبى لم اقل لك هذا .. ولكن أمامك الفرص كثيرة .. لماذا لا تعمل بالتجارة .. ألا ترى رجال الأعمال .. أنهم

ـ أخبرتك أن هذا الأمر يحتاج إلى رأس مال.

ربتت بكفها على يده وهى تقول :

ـ هدى ستفتح لك هذا المجال .. ستعرفك ببعض أصدقائها من رجال الأعمال وسيمكنك لنت بذكائك من خلالهم أن تحقق ما تريد.

انتفض منزعجاً وهو يصيح بعصبية لم تعتد عليها :

ـ لا تذكرى أسمها مرة أخرى .. وأنا أحذرك من السفر معها.. أوحتى استمرار علاقتك بها.

ـ عمرو ..ضغط على يده لتجلسه مرة أخرى، تفحصت وجهه قليلاً قبل أن تبادره قائلة :

ـ أنا لن ألومك على ثورتك .. ولكن من حقى أن عرف السبب.

أرتعشت شفتاه دون أن يتفوه بكلمة، وحتى لو استطاع فلن يؤدى هذا إلا للقطيعة بينهما.

ازداد اضراباً لاصرارها :

ـ إنى انتظر منك الإجابة .. اعطنى مبرراً واحداً وتأكد إنى سأطيعك.

تمتم فى همهمة .. ثم قال بهدوء غير متوقع :

ـ إنها تعيش بمفردها .. ولها أصدقاء .. ثم إنها تتصرف بحرية غريبة .. و ..

ـ وما مفهوم الحرية عندك ..

ـ الحرية لها حدود وقيود ..

ابتسمت بدهاء :

ـ وهل رأيت عليها ما ينفى هذا .. ثم بماذا تسمى علاقتنا أنا وأنت ؟.

ازدرد ريقه محاولاً التفكير فى سؤالها المفاجيء .. ثم قال :

ـ أنت تعرفين جيداً حدود علاقتنا معاً ..

ـ تأكد يا عمرو أن هناك آخرين من الممكن أن يتحدثوا عنا كما تتحدث أنت عن هدى .. أليس هذا ظلماً.

بدت المناقشة بينهما وكأنها بين ضدين وليسا حبيبين .. كان صراعاً يحتويه الغموض .. هدى بالنسبة إليه بؤرة الخطيئة .. ويريد أن ينقذ قلبه وحبه من براثنها ولكنه يقف عاجزاً أمام كل محاولاته .. لأن جسده يغوص في تلك البؤرة .. ولهذا استطاعت أحلام أن تنتصر لصديقتها بل وتحثه على الاستجابة والتآلف معها .. وتركته فى النهاية يجتر إحساسه بالذنب وقد والتآلف معها .. وتركته فى النهاية يجتر إحساسه بالذنب وقد خيمت عليه مشاعر الخوف من المستقبل الغامض الذى لا يأمل منه خيراً، فبدا مستسلما لوخزات الشكوك فى صدره بالنسبة لكل شيء .. حتى فى نفسه ..

ولم يكن من الصعب على عمه اذى قام برعايته أن يحتسس ذلك الصراع الذى طغى على وجهه ونظراته .. مما دفعه على مواجهته صراحة.

ـ ماذا بك يا عمرو .. أراك على غير عهدى بك.

ـ لا شيء يا عماه .. ولكنى مرهق قليلاً ..

كان العم كريماً معه واسع الصدر والحنان ، حاول أن يهون عليه شطحات الظروف. وذكره بأن للحياة ملايين النوافذ وبإمكانه أن يستبدل واحدة بأخرى ليطل من خلالها إذا ما أغلقت أحداها فى وجهه .. كاد أن ينهار أمام إحساسه بالأمان تجاه عمه وأن يخبره بكل شيء، غير أنه تراجع مقهوراً خوفاً من عواقب الأمور، وكأن مثله ليس من حقه أن يعيش كالآخرين وأن يصيب ويخطيء .. و.. أن يحب.

ـ على كل حال .. أنا طلبت رؤيتك لأذكرك بأن تسافرغداً للبلد.

وجد نفسه ينصاع لأوامره دون تفكير وهو يجعل بين جنباته شعوراً بأنه طريد الحياة وبأن عليه أن يعيش على هامشها، وليس من حقه أن يشكو أوأن يتألم .. ولا يجب أن يلتزم بالظروف المحيطة به لأنه دخيل عليها .. ولهذا قرر السفر فى اليوم التالى دون أن يهتم بما إذا كان تغيبه سيؤثر على عمله أم لا .. سافر محملا بهمومه فى وحدته والخوف يملأ قلبه من أن يفقد الإنسانة الوحيدة التى كانت تشعره بالأمل لغده، وهو يراها الآن تبتعد فى عناد تجاه دوامات عنيفة قد يصعب عليه أنقاذها منها، بل وانقاذ نفسه أيضاً .

همس فى صدره متسائلاً :

.. ترى .. أين أنت الآن يا أحلام ؟ ..

لم يستطع أن يريح نفسه وضميره، وفشلت توقعاته .. لأنها هى نفسها فقدت السيطرة على تحديد رغباتها .. تريد أن تستوعب كل شىء حولها .. تريد أن تستقطب لسنوات عمرها أحلى الأيام وأجملها .. لم تجرؤ ولم تحاول أن تتصدى لتيار هواها، فتركت نفسها تهيم مع نسمات الانطلاق بلا حدود، وراحت تذيب مشاعرها فى كل موقف غريب وكل بريق يبهر خاطرها قبل عينيها.

كانت الرحلة شاقة إلى الغردقة بالسيارة .. ولكنها سعدت بالمفاجآت التى كانت تنتظرها هناك .. حيث العلاقات الجديدة .. وأصدقاء الاسكندرية الثلاثة .. وفتيات فى مثل عمرها من كل مكان .. وسعدت أكثر باهتمام الجميع بها، وخاصة هشام الذى بدل سيارته البونتياك بأخرى مرسيدس ، ترددت قليلاً وهو يقدم إليها أول هدية ثمينة .. خاتم ذهبى .. قبلته تحت تأثير إيماءة من هدى .

أدركت أخيراً بما كانت تقصده هدى بمقولتها المأثورة :

ـ الكل للجميع، والجميع للكل.

فاعتادت أن تبدأ الحديث مع هشام وتنهية مع حاتم، وأن تقذف بالكرة إلى سميرة لتتلقاها من عادل .. بدت فخورة بنفسها وهى

تتسامر مع بعض رفيقاتها بغرفة الفندق فى أحاديث قبل النوم، ودفعها إنبهار بعضهم ممن تضاءلت معلوماتهن كثيراً عن الحياة فى الدول المتقدمة ،لأن تسترسل فى الأقاصيص تقلا عن والديها .. ولعب خيالها دوراً إيجابياً فى المزيد من التصورات لهن .. وانتقلت المبادرة من فتاة إلى أخرى .. فتلك سمعت بأن هناك كل شىء مسموح طالما أن أحداً لا يتدخل فى شئون الآخر .. وهذه تؤكد أن الفتاة فى سن السادسة عشرة يكون لها مطلق الحرية فى كل أمورها .. وأخرى تبرهن على رقى الحياة هناك بأنها عرض وطلب وبأن الحياة لمن يستحق .. أو يملك .. وكلهم يستحقون لأنهم جميعاً يملكون .. ولا أحد يجبر أحداً على شىء .. هناك الحرية كالهواء للجميع..

بدأ الاستياء يغشى وجه أحلام، لأن الفتاة الأخيرة قد أستحوذت على إهتمام الجميع بحديثها الأخير، فأقحمت نفسها بالحديث قائلة :

ـ بالنسبة لى .. فأنا أعيش هذه الحياة .. أسرتى تحيا حياة عصرية واعية لا أبى ولا أمى يحاولان أن يتدخلا فى شئونى .. وإن حاولا فلن يفلحا لأن بإمكانى أن أضعهما عند حدودهما. الدنيا اتغيرت.

ارتفعت الضحكات من حولها .. تصورتهن يكذبونها .. فأردفت :

ــ يمكنكن أن تسألن هدى فى هذا الموضوع.

مضت لحظة صمت سريعة تساءلت بعدها واحدة منهن

ـ ولكن .. أين هدى..

أجابتها الأخرى :

ـ أنها مع سميرة وهناء .. فى الغرفة الأخرى.

همهمت أحلام بصوت منخفض، وهى تسحب الغطاء فوقها :

ـ إذن .. لننتظر الصباح ..

وما كادت أن تغلق جفنيها استعداد للنوم، حتى أفزعها جرس التليفون .. كانت هدى المتصلة وقد بادرتها قائلة :

ـ هل استعديت يا أحلام ؟

ـ نعم استعديت للنوم ..

أبعدت السماعة عن أذنيها من قوة قهقهة هدى التى قالت فى تهكم :

ـ وهل جئنا إلى هنا لكى ننام .. هيا ارتدى ملابسك بسرعة .. سأكون فى انتظارك على باب الفندق.

تلفتت أحلام حولها فى تردد .. ثم أجابت :

ـ سأبلغهن حتى ..

قاطعتها هدى كأنها تراها :

ـ لا تخبرى أحداً .. فالمجموعة لا تحتمل المزيد ..

و .. استقبلتها هدى عند الباب ثم صاحت بها :

ــ هيا أسرعى .. فأمامنا ليلة من ليالى ألف ليلة... سنذهب معاً حيث ينتظرنا الجميع .. سنقضى سهرة ظريفة جداً فى الشاليه..

تساءلت وهى تستكمل تعطير عنقها بالرفان :

ـ أى شاليه ؟ ..

رمقتها بنظرة خاطفة قبل أن تجيبها :

ــ أمثال هشام لديهم فى كل منطقة مسكن خاص.

ــ وهل ؟

جذبتها من يدها لتدخلها إلى السيارة وهى تردد :

ـ لن نكون بمفردنا ..

وهناك .. كانت المجموعة تنتظرهما حقاً، تلفتت تمسح المكان نظرتها، رأت وجوها تعرفها وأخرى لم تلتق بها من قبل .. كان هشام متأنقاً كعادته .. سحرها فستان سميرة الوردى .. كادت أن خلت منها ضحكة عالية عندما رأت حاتم وهو يضع كأساً فوق رأسه ى رهان مع آخر بألا يسقط .. ولكنها ابتلعت ضحكتها عندما صطدمت عيناها بنظرة تسللت إليها من ركن بعيد كانت لرجل غريب فى عمر أبيها ..

كان هشام أسرعهم إليها، أستطاع من خلال حديثه اللبق أن يزيح عنها وشاح الخوف، مما شجعها للاستكانة إليه .. وبدأت عقارب الساعة تدور لتطل نجوم الليل وتراقب قبلة دافئة طويلة تجمع بين اثنين متعانقين، ورقصة حالمة بين آخرين .. وحديثا هامس بين الغريب وهدى .. وجلسة رومانسية انفرد بها أحلام وهشام الذى مد إليها بكأس فى صوت رخيم :

ــ كنت أخشى ألا تحضرى معنا هذه الرحلة.

تصدت للكأس بأطراف أصابعها وهى تقول :

ــ أرجوك .. أنا لا أشرب..

ارتاحت لتهذبه وازدادت اطمئنانا إليه عندما وضع الكأس فوق المائدة الصغير التى بينهما بلا الحاح .. ثم همس :

ـ هل تعملين ؟ .

ـ لا .. أنا طالبة.

فأجابها بقوله :

ــ هل أنت مرتبطة ؟

ترددت برهة ثم أجابت :

ـ تقريباً ..

كانت ابتسامته جذابة وهو يتساءل :

ـــ لم أفهم ..

كان يشرب كثيراً .. ويتحدث قليلاً .. وهى منبهرة بكل شيء حولها .. تذكرت حفلات والديها .. قالت تحدث نفسها..

.. لابد وأنهم هنا يعقدون الصفقات أيضاً .. اقتحمت مخيلتها صورة عمرو .. وجدت نفسها مدفوعة لسؤاله :

ـــ ماذا تعمل ؟

أجاب بلا اكتراث :

ـــ فى التجارة ..

ـ هل هى مربحة لهذه الدرجة ؟

أومأ برأسه وهو يكمن رشفة كأسه ..

لم يشف غليلها .. أرادت أن تستجمع كل المعلومات .. فقالت تستدرجه :

ـــ لابد إنها تحتاج إلى رأس مال كبير ..

ـ ذكاء .. و .. علاقات.

بدا ملولا لهذا الحديث الجاف، كاد أن يستجيب لفتاة أخرى تطلبه لمراقصتها إلا أنه تراجع إلى مكانه عندما جذبت أحلام إهتمامه تناولها الكأس الذى أمامها وقذفت ما بداخله فى جوفها حتى شتعلت وجنتاها.

وسرعان ما انفجرت أساريره وهو يقول :

ـ إلى هذه الدرجة يهمك الحديث عن التجارة .

سحبت ابتسامة على شفتيها وهى تضع لنفسها كأساً آخر ..
وقالت :

ـ هناك كثير من الأذكياء .. ولكنهم ليسوا أثرياء.

بدت ابتسامته أكثر سحراً وهو يجيبها فى اقتضاب :

ـ أخى يعمل فى جمارك بورسعيد.

تجرعت الكأس الثانى فى جرأة.

ـ مسئول كبير.

وبلا أهتمام قال :

ـ لايشترط هذا .. و ..

صمت لحظة يصنع لها كأسا ثالثا . . ثم أردف :

ـ أراك تتحدثين عن أحد يهمك أمره.

سارعت بلا تردد :

ـ أجل .. تلك حقيقة.

ـ يمكننى مساعدته إذا أردت ..

كادت تلتهم كأسها بين شفتيها .. وهمست فى تحمس :

ـ أحقاً .. وبلا رأس مال .. هل يمكنك أن ؟

قاطعها بثقة :

ـ ألم أقل أن الأمر لا يحتاج أكثر من الذكاء والعلاقات ..

اقتربت هدى منهما، وكأنها كانت تراقب الموقف .. صورتها فى عيون أحلام باهتة، وربما عرفتها فقط من صوتها حيث بادرتها قائلة :

ـ أراك سعيدة يا أحلام.

كانت الحروف تتساقط من بين شفتيها فى تثاقل وهى تجيبها :

ـ الأستاذ هشام سيتعاون معى بخصوص ..

ولكنها صمتت عندما قاطعتها هدى فى تهكم :

ـ يبدو إنكما اتفقتما على كل شىء.

لم تفهم أحلام مقصدها .. أو لم تحاول أن تفهم .. كانت ترى أشباحا يتوارون أفراداً وإزواجاً .. والأضواء تخفت على التوالى وهى تظنها رعشة أهداب .. وأنشقت الأرض عن هدى ابتلعتها .. كما ابتلعت هى كأسها الرابع .. أحست بأنغام الموسيقى تذوب فى عروقها، وبذراعه يحيط بخصرها كالثعبان .. استجابت لدفء شفتيه فوق عنقها .. كان عطره نفاذا غالياً .. نهضت طواعية تراقصة فى

هدوء .. شعرت بصدره يطويها .. تقدمت معه بخطوات حالمة .. انتقلت من مكان إلى آخر إرتاحت لحنانه وهو يمدها فوق الفراش .. انتشت لإحساسها بكيانها وهو يذوب بين شفتيه .. كان صوته رخيما هادئاً وهو يهمس بأنفاس متلاحقة.

.. لن تندمى على ثقتك بى .. سأجعلك تنعمين بالسعادة والمال .. سأقف بجوار من تهتمين به .. سأعاونه، سأجعل منه رجلاً ثرياً .. سيكون له البونتياك والمال .. والقصور .. سيأخذك بين أحضانه ويمطرك بقبلاته .. ستشعرين بالمتعة الحقيقية .. سيلتهمك وهو يقول لك أحبك .. أحبك .. و .. صرخت متوجعة .. ولكن .. فى وقت لا ينفع فيه الصراخ .. أو الندم.



— ٦ —

تنهد الصعداء .. شعر بأنفاسه كأنها سياط تهوى على رئتيه ..دار برأسه فى كل اتجاه لا يصدق أنه حر طليق.

أربع ساعات، كأنها أربعة قرون قضاها فارس أمين وهو محاصر بأسئلة المحققين فى المطار .. أسئلة مدربة لم يكن فى مقدوره حيالها سوى الإعتراف.

كانت البداية نظرة .. ثم ارتياب فى أمره، وخطوات انشقت عن لا شيء بأصحابها وأحاطت به، ثم سؤال مباغت أحس بحروفه تخترق أذنيه لتقتنص الحقيقة من أعماقه :

ـ هل هذه الحقيبة ملكك؟

ثم أيد أكثر تدريباً تغوص وتطفو بين ثنايا الحقيبة، ومخابىء سرية تكشف عن نفسها تحت رادار أصابعهم .. ثم أوراق مالية تخرج تباعاً فى رزم مقيدة تكان تئن من تقوصها .. حرروها من قيدها .. نصف مليون دولار .. ودارت حوله الأسئلة من جديد :

.. لماذا لم تسجلها فى أقرارك الجمركى ؟

.. من أين لك بهذا المبلغ ؟

.. منذ متى وأنت بالخارج ؟

.. ماذا كنت تعمل هناك ؟

.. هل تعمل لحساب أحد.. ومن هو ؟

.. كم محاولة نجحت فيها .. و ..

توسل .. أقسم كذباً بأنه لا يعرف القوانين .. بكى صادقاً، خائفاً لا نادماً .. حاول أن يوهمهم بأن المبلغ حصيلة بعض الأعمال التجارية التى قام بها فى إيطاليا .. تضاءل أمام نظراتهم المتشككة فى أقواله .. عاد وتوسل.

ـ خذوهم .. خذوا جواز سفرى .. لا أريد السفر مرة ثانية .. أنا رب أسرة .. مستقبلى بين أيديكم .. و .. تمت المصالحة.

وما أن وجد نفسه خارج مبنى المطار .. وتأكد من أنه بعيد عن عيونهم حتى وقف يلتقط أنفاسه وكل نبضة فى كيانه ترتجف ..لقد كان خائفاً بحق، ليس مما حدث فقط ولكن مما سيحدث فيما بعد .. ماذا سيقول للوسيط الذى بينه وبين أصحاب المال .. كيف سيواجه الصكوك التى وقعها بلا تحديد كضمان لهم .. هل سيغفرون له مقابل محاولاته الناجحة فى السابق .. هل سيقدمونه للمحاكمة ثم إلى السجن .. هل سيقتلونه .. كيف سيصبح شأنه أمام زوجته وابنته.. وأبيه إذا أكتشفوا حقيقة أمره.

أسند برأسه على زجاج نافذة السيارة الأجرة التى أستأجرها إلى منزله .. لم يستطع أن يفرق بين الغروب وبين إحساسه بالمصير الذى ينتظره، كانت الدنيا فى عينيه تحيط نفسها بوشاح قاتم لا يدعو إلى الأمل .. بدأ شارداً مكتئبا، وكل خلجات عقله منشغلة بحكمهم عليه إذا علموا الحقيقة.

كان لا يدرى أنهم أيضاً فى إنتظار حكمه عليهم .. لم يكن يدرى بأن أموراً تفوق تصوراته قد حدثت فى أسرته وهم جميعاً فى إنتظار عودته .. كل منهم يأمل فى أن يضع حداً لصالحه .

فتحية زوجته تنتظره فى تربص لتثور لكرامتها من تصرفات ابيه تجاهها .. وأبوه يضمر قراراً لن يفصح عنه إلا فى حالة يأسه .. وابنته تعلق مصيبتها إلى حد الانفجار بعدما أعلنها الصراع بين الجد أمين وبين فتحية إلى حد الانفجار بعدما أعلنها الجد بوضوح بأنه لا يقبل تصرفاتها المريبة فى غيبة زوجها وخاصة أن زيارات توفيق بك قد تكررت فى لقاءات منفردة وأوقات لا تحتمل إلا الشكوك.

وما كان منها إلا ثورة عارمة أطاحت من خلالها بكل الاعتبارات والحدود، مستغلة ذلك الموقف الذى اعتبرته تدخلا سافرا منه .. وراحت تنفس عن أحقادها نحوه متهمة إياه بالخبل والجنون .. و.. استقرت الأمور بينهما تحت قبضة بركان متأجج لحين حضور فارس، ليحكم بينهما وهما لا يعلمان بأنه قد تحول من قاض إلى متهم فى إنتظار حكمهم جميعاً .

كان استقبالاً فاتراً، وبدت الأسارير الجامدة كالجليد تخفى تحتها شرايين تحولت دماؤها إلى ذرات بارود تتأهب للإنفجار.

همس فى وجوم منكسر :

ـ كيف حالك يا أبى؟

ـ بخير ..

تلفت حوله قبل أن يقول لنفسه :

ـ أرجو هذا .. أين فتحية وأحلام ؟

أشار بعصاه تجاه لا شىء :

ـ تجدها هناك .. وأحلام أعتقد أنها بالمنزل.

ـ ارجو أن تأذن لى لأراهما ..

وما كاد يستدير منصرفاً حتى استوقفه بحزم :

ـ كنت أفضل أن أحدثك الآن .. ولكنى أراك متعبا من السفر وسأرجىء حديثى معك للصباح .. وأود أن أخبرك بانك لم يعد أمامك الخيار .. فاما طاعتى وأما ..

قاطعة متلهفاً :

ـ ماذا فى الأمر يا أبى .. هل .. هل علمت شيئاً هل اتصل بكم أحد بشأنى.

ـ أنا لا أفهم ما يدور بذهنك .. ولكنى سأصبر حتـى الصبـاح على كل حال .

بدأ فارس يجر فى خطواته تجاه غرفة زوجتـه .. تردد برهـة قبل أن يقتحمها .. استعد خلالها لحفاوتها ولهفة استقبالها كعادتها معـه .. ولكنه فوجىء بغير كل توقعاته عندما وجدها تستقبله بكلمة واحدة:

ــ أهلا ..

وقف أمامها مندهشاً، ولكنهـا استدارت موليه إياه ظهرهـا ثم استطردت بجفاء :

ــ ها أنت عدت لتضع حدا لهذا الجحيم الذى أعيش فيه.

ــ فتحية .. أيمكن أن يكون هذا استقبالك لى بعد طول الغيبة.

التفتت إليه مستدرجة :

ــ أعذرنى يا فارس .. لقد أصبحت الحياة مع أبيك مستحيلة .. إنها الجحيم حقاً..

اقترب فى تودد :

ـ ماذا حدث يا عزيزتى .. فأنا ..

فاجاته بقسوة، وهى تطعنه بلا هوادة بأحرف كلماتها :

ـ إنه يطعننى فى شرفى .. بل يحاول أن يؤكد ذلك.

ـ ماذا ؟

ـ أجل أنه يحاول أن يثبت ذلك .. اتهمنى بالخيانة.

بدأت الدماء تندفع إلى رأسه وهو يحاول أن يبدو متمالكاً :

ـ ما الذى دعاه إلى ذلك ؟

ضحكت مستهزئة :

ـ يحاول أن يتهمنى بأننى وتوفيق بك على علاقة غير شريفة.

كرر جملته فى بلادة :

ـ ما الذى دعاه إلى ذلك ؟

ـ أنه أصبح مخرفاً .. كيف يظن هذا لمجرد تكرار زيارته لى ليطمئن على أحوالى .. و ..

قاطعها بشفاه مرتجفة :

ـ وهل كان يفعل .. ولماذا .. ومتى

ـ فى أى وقت يشاء .. فماذا يمكن أن يكون بيننا ؟ .

لحق بها قبل أن تجلس على لفراش :

ـ فى أى وقت كان يحضر .. وهل بمفرده .. ولماذا .. ألا يكتفى برؤيتك فى العمل ؟

رفعت نظرها إليه فى تحد :

ـ فى المساء .. وبمفرده .. هل يدور بذهنك شيء ؟

جلس بجوارها وهو يدفن رأسه بين كفيه .. ثم تمتم في إنكسار:

ـ إنى لا أحتمل المزيد من المشاكل .. لقد انتهيت ويجب أن تعلمى حقيقة المصيبة التى اعيش فيها الآن .. سأخبرك بشئ قد يصيبك بالأنهيار لهول المفاجأة .. أنا ..

قاطعته بتردد وكأنها لم تسمع منه شيئاً .. ولا تتوقع منه شيئاً:

ـ أنا أشعر بالاختناق .. وكأننى أتنفس هواء مسموماً .. لم أعد أحتمل الحياة مع هذا العجوز المتطفل .. و..

صرخ منتفضاً وهو يلوح لها بكلتا يديه :

ـ كفى .. أقول لك إننى أعيش وسط مصيبة قد تؤدى بى إلى السجن أو الموت .. وأنت مازلت ترددين هلوستك .. أقول لك أن حياتى وحياتكم مهددة بالتشرد وأنت تتباكين على حياتك الكريهة مع أبى .. بسببكم جميعاً أصبحت مجرماً فى حق القانون .. وبسبب نصائحك أنت بالذات أندفعت كالمسحور وراء أحلامك .. أتسمعين .. لقد أصبحت مجرماً .. مهرباً .. والآن جاء الوقت لكى أدفع الثمن .. لقد صادروا كل الأموال المهربة .. نصف مليون دولار .. أتعلمين ما معنى هذا .. سيطالبنى أصحاب الشأن بالمبلغ .. سأدفع ثمن هذا .. السجن أو الموت.

ثم صمت لحظة التقط فيها أنفسه واستطرد وهو فى إنفعاله :

ـ ما رأيك الآن .. كنت أغامر بحياتى من أجلكم .. وأنت هنا تمرحين وتسهرين .. وتعبثين بكرامتى فى غيابى مع هذا الوغد المدعو توفيق ..

و إنهار مرة أخرى جلساً وهو يحاول أن يكبت مدامعه، ثم التفت إليها قائلاً :

ـ لقد ضاعت حياتى .. ولو كتب لى النجاة فسأضع حداً لتلك الأوضاع الشاذة ..

سأعود ببيتى لسابق عهده .. سأطرد هؤلاء الجرذان الحقيرة، وأعيش باقى عمرى نادماً على ما فعلت .. و ..

احتبست الكلمات فى حلقه عندما قاطعته بكلمات شعر بها وكأنها تصفعه بقوة على وجهه لكى يفيق من حالته الهستيرية .. قائلة:

ـ هذا أدعى لكى توقف أباك عن هذه السخافات التى يقوم بها..

دار بعينيه حتى استقرت نظرته عليها ثم همس :

ـ ماذا تقصدين ؟

انتقلت بهدوء من مكانها ثم جلست على المقعد المواجه له وأجابت :

ـ أقصد إنك كنت سترتكب خطأ أكبر بإنفعالك .. والسير وراء خرافات أبيك ..

ـ أى خطأ .. وما دخل أبى فى الموضوع ؟

تركته فى حيرته، واتجهت للنافذة تطل من خلالها نحو الأفق المظلم .. ثم همست :.

ـ دعنى أفكر كيف أخلصك من هذه الورطة ..

قال فى يأس :

ـ لا أمل .. لا أمل ..

التفتت إليه فى دهاء :

ـ هذا يتوقف على موقفك تجاه أبيك.

أخذته الدوامة مرة أخرة وهو يتساءل فى مذلة :

ـ وما دخل أبى ؟

أحتدت نبرتها فجأة وهى تقول :

ـ لأنك بسببه كنت ستدفع الثمن فعلاً .. وربما أصابك مكروه كبير ..

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة .. أسكتته بإشارة من يدها وأردفت قائلة :

ـ على كل حال سأوضح الأمر لتوفيق بك وأنا علـى يقين أنـه لن يخذلني .

أندفعت الدماء إلى رأسه بقوة من ردها :

ـ وما شأن توفيق هذا في أمري .. أما زلت تودين أن ..

أخرسته بصيحة قضت على فواه :

ـ لأنه صاحب المال .. إنه الرأس الكبـيرة التـي لا تعلم عنهـا شيئاً ..

حاول أن ينهض .. ولكنه لم يفلح في هذا .. بدت الأشياء حوله وكأنها فقدت جاذبيتها نحو الأرض .. اتسعت عيناه وهو لا يرى غير الضباب .. وانفرجت شفتاه وهو لا يقول شيئاً .. بينما ظلت هي مسلطة نظرتها القوية عليه في تربص وانتظار لرد فعله.

وبصعوبة بالغة همس بصوت منخفض :

ـ و.. هل كنت تعلمين ؟

قالت بثقة :

ـ أجل ..

ـ و.. هل يعلم هو أنك تعلمين ؟

ـ أجل ..

ـ جميعكم كنتم تعلمون ..

ـ أجل ..

ردد فى توجس :

ـ وابنتى .. أحلام .. كانت تعلم ؟

ـ لا ..

ثم أردفت فى استهتار :

ـ وما دخلها فى الموضوع ؟

طأطأ رأسه فى إنكسار وهو يتساءل :

ـ من كان يعلم إذن غيرك وغيره ..

ـ هـــدى ..

انتفض فى فزع، وأسرع إليها يهزها بعنف وهو ممسكاً بكتفيها:

ـ إذن .. كانت مؤامره منكم جميعا على .. كنتم تسخرون منى دون أن أدرى .. جعلتمونى أضحوكة بينكم تسيرونى كما تريدون .. كنتم ..

تخلصت منه بصعوبة وهى تصرخ فى وجهه :

ـ كف عنك هذا الهراء .. أنت نفسك كنت تعلم حقيقة اللعبة وبإرادتك سعيت .. أنا لم أدفعك على شيء .. أنت الذى امتلأت جشعا وأستهسلت المال السريع .. و ..

صمتت برهة ، استعادت فيها توازنها .. ثم استطردت :

ـ ثم لا تنسى أنك فى مأزق حقيقى .. وأى تهور طائش منك سيدفع بك إلى السجن .. أو .. إلى نهاية لا أحبذها لك ..

اقتربت منه وهى تمسح بأصابعها على شعره برفق .. ثم قالت بحنان :

ـ أنا أعلم أنك مرهق ومتوتر .. ولذلك سيكون تفكيرك غير صائب .. دع الأمر لى وأنا سأتصرف .. هيا أخلد للنوم.

أستسلم ليدها وهى تدفعه برفق نحو الفراش، واستلقى عليه بملابسه الكاملة ثم سكن دقائق فى صمت، رفع رأسه بعدها إليها متسائلاً :

ـ هل يمكنك إنقاذ الموقف حقاً ؟

أنحنت إلى شفتيه تقبلها وهمست :

ـ لا تهتم يا عزيزى .. كل شىء سيكون على ما يرام.

أغمض عينيه وهو يعتم أنه يراوغ نفسه، وبأنه لن ينعم بالنوم وأن طالت به الليالى .. كان يعلم أن فجره سيتبعه الظلام .. وبأنه لا

يملك غير الاستسلام، كل شيء بدا واضحاً في أعماقه .. أدرك أنه أصبح كيان بلا ظلال .. إنسان تافه لا قيمة له، وبأنه كان ضحية لأطماعه ولتهوره وراء بريق كاذب .. لم تسطع كلماتها الأخيرة. كل شيء سيكون على ما يرام. أن تجعله يتوقع خيراً .. ولكنه لم يكن يملك خيالها غير أن ينتظر على أمل .. هذا الأمل جعله حبيس غرفته طوال ساعات غيابها عن المنزل، لم يستطع مواجهة أبيه، وقتل ما في صدره من أحاسيس الشوق لرؤية ابنته التي لم يرها منذ وصوله.

كان الخوف يتملكه ويعتصر قلبه .. ساعات طويلة مرت وهو منكمش فوق فراشه يترقب في رعب حقيقي عودتها .. وكأنه في إنتظار حكم الإعدام.

كاد أن ينفطر قلبه بين ضلوعه عندما سمع طرقات على باب غرفته .. وهمس بنبرة حبيسة متسائلا :

ـ من ؟

انفتح الباب لتطل من ورائه رأس أبيه التي تحمل عيناه الحازمة، قائلا :

ـ ألا زلت نائماً يا فارس ؟ .. لقد اصبحنا في الظهيرة ..

لم يكن أمامه غير أن يجلس على الفراش وهو يردد :

ـ لقد استيقظت لتوي يا أبي .. أين أحلام ؟

أقترب منه وهو يتكيء على عصاته :

ـ قد تكون فى غرفتها .. أو تكون قد انصرفت .. فالأمور فى ها البيت تسير بطريقة غامضة .. و ...

نهض فارس من فراشه مما لفت نظر أبيه أنه لايزال بملابسه للكاملة .. فسارع فى تهكم قائلا :

ـ النوم بهذه الطريقة .. من مستلزمات الموضة ايضاً ..

بدا الإرهاق واضحاً تحت جفنيه .. والحزن يحيط بنظرته وهو يجيب :

ـ لقد غلبنى سلطان النوم : ولم أستطع مقاومته.

بدت ابتسامة باهتة من تحت شارب أبيه وهو يجلس على الكرسى المقابل له، وأخذ يضرب الأرض بعصاته وهو يخفى رأسها.

وبأساير جامدة .. ونظرة ذابلة مستكينة .. همس :

ـ إنى أسمعك يا أبى ..

وكأنها لحظة إنفجار لبركان ضاقت به الحمم، كانت كلمات الجد أمين تتدافع من شفتيه كالشلالات العنيفة، كاشفاً من خلالها عن حقيقة الوضع الذى أصبحت عليه أسرته .. اتهمه بأنه السبب فى كل شيء .. أسرة إنهارت قوائمها وغاصت فى جوف كثبان التسيب والانحطاط، واندفع فى ثورته مؤكداً له بأنه يعيش مع زوجة خائنة

استطاعت أن تقوض رجولته وتعبث بكرامته، وبأنه فقد السيطرة على تصرفات أبنته الوحيدة التى فقدت بدورها ثقتها به واحترامها له.

كان عنيفاً وهو يقطع الغرفة بخطوات ثائرة وبصوته الأجش الذى طال سجنه وراء قضبان الصمت الطويل .. لم يهتز لصورة ولده المنهارة وهو منكس الرأس ذابل الجفنين، وراح يصرخ فى وجهه قائلاً :

ـ انظر إلى نفسك .. لقد أصبحت صورة ماسخة لرجل .. تركت وظيفتك ودمرت جدران بيتك وجعات منه مسرحاً لأقدام الغرباء حتى داست عليك أنت. تنكرت لراية الاتزان والخلق لترفع شعار التحرر الزائف .. و ..

استدار فجأة إليه وأشار بعصاته نحوه حتى كادت تلامس نهايتها كتفه ، ثم أردف :

ـ هل تعلم شيئاً عن أبنتك .. هل تعلم أنها تركت دراستها وراحت تتمثل بك وبأمها فى إستهتاركما .. هل تعلم إنها تغيب عن المنزل بالأيام. كل هذا وأنت غافل وسط العفن والضياع .. و ..

جلس منهارا بعد أن أرهقته أحاسيس الغضب ثم أسند رأسه على رأس أبو الهول وهو يردد كأنه يحدث نفسه :

..ليتنى مت قبل أن أرى أبنى الوحيد على هذه الصورة ليتنى مت قبل أن ..

ولكنه توقف عن الكلام عندما فقد فارس السيطرة على مشاعره مجهشاً فى البكاء وأرتفع نحيبه وكأنه طفل صغير قد سدت أمامه كل منافذ النجاة. ولم يعد أمامه إلا الاستسلام للعقاب.

وتحركت مشاعر الأبوة فى صدر الجد أمين، وأفزعه رؤية ولده ذى الخمسون عاماً وهو يذرق الحسرة من عينيه، فنهض بقوامه الفارع مقترباً منه وهو يضع كفه فوق رأس فارس قائلاً بحنان :

ـ لم تزل أمامك الفرصة يا ولدى .. والله غفور رحيم.

ولكن . كان قرار القدر أقوى من آمال الأب والأبن معاً، ولم يمهل أحدهما فرصة لمعايشة التصور الذى يروق لكل منهما، فالجد يأمل أن يرى ولده وهو يثور لكرامته وأن يستعيد رشده وأمجاده التى تراكمت عليها الأخطاء الواحدة بعد الأخرى، يريد أن يسمع صيحته القديمة وهى تدوى فى المنزل لتزلزل أركانه كما كان يفعل من قبل كلما استاء من أمر رآه لا يتناسب مع مركزه وأخلاقياته كان يترقب تلك اللحظة التى ستطوى بعدها صفحات الخطيئة والتهور والتى ستلجم جماح التسيب الذى تفرعت جذوره تحت روابط الانتماء الذى كان يجمع بينهم.

أما فارس فكان هو الآخر يترقب معجزة من السماء قد تطفو به بعيداً عن حصار الخوف، كان ينتظر المجهول .. يريد أن يخرج من قمقم المذلة، ليس إرضاء لأبيه فقط ولكن إرضاء لنفسه العائدة والتى أزاح والده عنها غبار الضياع بكلماته .. كان يأمل أن يدمر

أصنام العجز التى طالما أحاطت به فقيدته، لتسلب منه أغلى ما يمكن أن يمتلكه إنسان.. فقط كان يريد، ووالده يريد .. ولكن الواقع أفصح عن رغبة أخرى .. ولم يمهلهما غير سويعات قليلة عادت بعدها فتحية من عملها وهى تحمل فوق أسارير وجهها الجمود والتسلط وإزدادت تسلطا وهى تقترب من فارس فى شموخ المنتصرة دون أن تعير انتباها للجد .. ثم قالت بحزم.

ـ المشكلة بدت أصعب بكثير مما توقعت ..

انطفأت جذوة الانفعال فى حينها عند فارس وهو يومىء برأسه فى يأس دون أن ينبس بكلمة واحدة، بينما أختلست زوجته نظرة مستفزة إلى الجد الذى وقف متعمداً فى إنتظار ما يمكن أن يقدم عليه ولده .. وأردفت :

ـ على كل حال سنتدبر الأمر عندما يأتى توفيق بك مساء غد .. فهو رجل كريم وأرجو أن نقضى معه وقتا طيباً .. بالمناسبة لقد ..

ولكنها تصمت فجأة عندما قاطعها الجد فى زهو وإصرار قائلاً:

ـ هذا الرجل لن يدخل هنا مرة ثانية.

استدارت نحوه ببطء وهى تكظم غيظها وتساءلت ساخرة :

ـ ومن صاحب هذا القرار ؟

شد من قامته قبل أن يجيبها قائلاً :

ـ تلك رغبة ولدى قبل أن تكون رغبتى.

التفتت إلى فارس مرددة :

هكذا إذن .. هل ..

ولكن فارس يلاحقها هامسا فى تردد :

ـ دعى الأمر الأن يا فتحية .. سنتحدث فيما بعد .. فأنا ..

قاطعته بعناد كأنها تتعمد كشف حجمه الطبيعى أمام والده وقالت :

ـ لا .. بل يجب أن تكون الأمور واضحة من الآن .. يجب أن تضع حدا لتلك التدخلات التى سئمت منها .. هل حقاً تلك هى رغبتك .. أجبنى هل لا ترغب فى زيارة توفيق بك .. قل لأبيك الثائر من وهو توفيق بك .. قل له يكف عن التدخل فى حياتى وألا..

وينهض فارس مفزوعاً إليها وهو يردد فى استعطاف :

ـ فتحية أرجوك .. لا داعى لثورتك .. أنت أعصابك رقيقة .. لا تشغلى بالك بالمشاكل .. أنت يا ..

ثم أمسك عن الكلام وكأنه تذكر فجأة أن والده لا يزال يقف معهما .. فتسلل بنظرة تجاهه وهو يدور برأسه، وسكن برهة ينصت للصراخ الصامت الذى يغشى عين والده ثم عاد لفتحية مستطرداً :

ـ هل تسمحى لى بالانفراد بوالدى قليلاً .. فأنا أريد أن ..

ولكن جاءه صوت أبيه المشحون بالأسى مقاطعاً :

ـ لا .. لن أنفرد بك .. ولن يكون بيننا حديث .. بل ابق أنت معها حيث شئت .. و ..

وبدأ ينصرف خارج الغرفة وهو يدق بعصاته فى توتر .. ثم التفت تجاهه بنظرة أمتزجت فيها الحسرة والاحتقار .. وأردف قائلاً :

ـ وحيث أعتدت يا فارس بك ..

ثم تركهما منصرفاً بعد أن جذب الباب خلفه بكل قوة.

كانت فتحية أذكى كثيراً من أن تزيد الأمر أشتعالا، فلم تحاول استمرار الضغط على زوجها .. هى تعلمه جيداً، وتعلم كيف تسوسه دون أن تشعره بعجزه أو انصياعه لكل رغباتها، ولكنها أيضا رأت أن تحكم قبضتها على تفكيره قبل أن يستوعب أى تأثيرات من والده، فتركته قليلاً مع شروده ثم أنفقضت بكلمتها عليه لتجهز على البقية الباقية من تفكيره .. أن كان هناك بقايا .. قائلة كأنها تحدث نفسها :

ـ إنها لكارثة ..

أزعجها صمته الذى التزم به دون أن يلتفت إليها .. اقتربت منه بحرص ثم وضعت كفها فوق كتفه هامسة :

ـ يحزنني كثيراً عذابك يا فارس .. وأرجو أن تدرك حقيقة واحدة، وهى أنى زوجتك التى تحبك .. وأنى مخلصة لك .. وعليك أن تثق بى مهما كانت الأقاويل من حولى وحولك ..

رفع رأسه نحوها ثم قال بنبرة حزينة :

ـ لست أدرى كيف سأتصرف .. إنها مصيبة كبيرة .. أنا ...

جلست بجواره وهى تحيطه بذراعيها :

ـ لكل مشكلة لها حل فلا تقلق .. ثم اننى من أجلك فقط سأتنازل عن كرامتى وسأبتعد بك عن المشاكل .. حتى لا أسبب لك الحرج.

ـ أنا لا أفهم مقصدك. ما الذى يدور فى رأسك يافتحية ؟

نهضت وهى تفرك فى أصابعها .. ثم توقفت فى منتصف الغرفة والتفتت إليه وفاجأته قائلة :

ـ لن أجعلك فى صورة لا ترضاها أمام عمى .. ولذلك أنا قررت أن يكون إجتماعنا غداً فى شقة هدى .. و ..

أسرع نحوها قبل أن تسترسل .. قائلاً فى غيظ مكتوم :

ـ إنى أكره تلك المرأة ..و ..

وبدت منه التفاتة تجاه النافذة وأطلق نظرته إلى المجهول كأنه قد تذكر شيئاً قد غاب عن ذهنه طويلاً :

ـ و .. لكن أين أحلام ؟

زحفت نحوه بخطواتها الثعبانية وهى تحاول أن تتحمل غطرسته الخاوية ثم قالت :

ـ أنا لا أرى سبباً لكراهيتك المفاجئة لهدى، بالرغم من أنها لم تسبب لك أى مشاكل .. بل على العكس .. إنها فتاة طيبة ظلمتها الألسنة كثيراً .. ثم أنها فى أستطاعتها التأثير على توفيق بك لما لها من علاقات عديدة.

وكالعادة .. نسى فارس كل شىء فى لحظة ضعف بين يدى زوجته وانصهرت أسارير الغضب عن ملامحه وسارع متسائلا :

ـ أحقاً .. هل لهدى تلك السطوة على توفيق بك .. هل ..

قالت فتحية مؤكدة :

ـ وأكثر من هذا .. هل غاب عنك علاقاتها الكثيرة .. أنهم جميعاً يسعون لإرضائها.

دغدغه إحساس الأمل فى صدره .. ثم تساءل فى بلاد ه:

ـ إنها تحب أحلام أليس كذلك ..

ـ تحبها كثيراً .. كما إنها تغدق عليها بالهدايا .. والمسكينة تأمل دائماً فى مودتها .. ولكن أبنتك هى الجامدة .. نادرا ما تستجيب لمرافقتها فى رحلاتها المتعددة .. فأنت كما تعلم أن هدى وحيدة.

بدا هادئاً وهو يبدل ملابسة استعدادا للاسترخاء ثم قال بتحمس:

ـ لا .. لا .. أحلام ليست على حق .. أنا من رأيى أن مصاحبتها لفتاة مثل هدى خير لها من التسكع مع صديقات تافهات .. على الأقل مع هدى ستستفيد من المعلومات من خلال تلك الرحلات الداخلية.

استلقت فتحية على الفراش وهى ترمقه بنظرة لا تحمل غير الاحتقار، ثم سحبت الغطاء فوقها وهى تردد :

ـ لا تقلق .. سألفت نظرها إلى هذا ..

أسرع فارس وأندس بجوارها على الفراش ثم سحب الغطاء حتى أخفى وجهه وكأنه يخفى نفسه من واقعة الذليل .. أومن الحقيقة .. وهو يعلم الحقيقة .. وهى أنه أصبح لا يملك غير أن يكون تابعاً لتوجيهات فتحية .. ولكنه تشبه بالنعامة التى تخفى رأسها فى التراب عندما تشعر بالخطر وهى فى تصورها أن أحد لا يراها .. الفرق الوحيد بينهما أن النعامة قد تكون لا تدرى ..ولكن فارس أمين كان يدرى كل شىء ..

* * *



ـ ٧ ـ

تقوص عمرو فجأة عند طرف الفراش، سحب الملاءة يغطى بها صدره العارى وهو يعانى من قشعريرة الارتباك عندما سمع جرس الباب المتتالى .. نظر إلى هدى التى بدت أكثر أتزانا منه، أوأكثر أعتيادا على مثل تلك المواقف، ولكنها لم تقاوم كثيرا هى الأخرى عندما تحول الرنين إلى دقات عنيفة على باب شقتها .. التقت نظرتهما فى صمت مذعور .. تساءل عمرو فى همس شديد :

ـ أتعتقدين من يكون ؟

أجابته بنبرة حبيسة :

ـ لست أدرى ..

الرنين يتواصل، والدقات تزداد عنفا .. سحبت هدى قدميها للأرض .. كانت عارية تماماً، تلفتت حولها كأنها تبحث عن مخبأ آخر غير صدر عمرو لتحتمى به .. أسرعت تلتحف روبها القطيفة، ضغطت على خصرها بحزامه حتى لا يبدو شىء من جسدها المنتفض .. دارت بنظراتها تمسح المصابيح المضيئة التى تسلل ضوؤها للخارج، شعرت بالندم لأنها لم تطفئها .. رددت فى نفسها .. آه من هذه الموسيقى اللعينة هى التى كشفت وجودى بالمنزل .. ليتنى أغلقت التسجيل قبل أن أسعى لغرفة النوم.

اقتربت من الباب .. ثم تساءلت والاضطراب يفضحها :

ـ من ؟

ـ أنا أحلام أفتحى يا هدى .. هدى أنا أحلام ..

كادت يدها ترتعش وهى تمتد لمقبض الباب .. وما كادت تفتحة حتى فوجئت بها تقتحم الردهة مسرعة وهى فى حالة ذعر كبير .. هالها المنظر الذى بدت عليه أحلام . سكنت ترقبها وهى تحاول أن تستعيد أتزانها.

أفلتت منها همسة إلى أعماقها ..

يا إلهى

كانت أحلام منهارة تماماً .. أرتمت على المقعد وهى تسند رأسها إلى أعلى.

بدا السواد القاتم يحيط بجفيها، وحبات العرق تتقافز من جبهتها .. صدرها يكاد أن ينفجر من تلاحق أنفاسها المخنوقة .. كانت ذابلة .. مكفهرة الملامح وملبدة الشعر.

وبحرص شديد حاولت هدى الاقتراب منها إلا أنها تراجعت فى خوف كأنها تذكرت فجأة أن هناك من ينتظرها فى غرفتها ..

أبدت التفاتة سريعة للخلف .. تذكرت عمرو .. لم تكن تدرى ما أصابه هو الآخر، حيث دارت به الدنيا .. تمنى لو استطاع أن

يقفز من النافذة حتى لو كان فى ذلك هلاكه، فكل شىء بالنسبة إليه قد إنهار تماماً .. كيف سيواجه أحلام .. حبه الوحيد الذى من أجله باع نفسه ليحقق ما تريده .. أرادت له أن يكون رجل أعمال .. أن يكون ثريا .. أن يكون أنيقا يرتدى أحدث الملابس ويقود أفخر السيارات .. أرادت له كل هذا .. ولكن .. ليس إلى هذا الحد .. فهى أرادت منه أن يفعل كل شىء، ولكن من أجلها وليس ليكون لإنسانة أخرى .. كان يدور فى الحجرة كأنه دب حبيس وراء القضبان متعطش للماء وللحرية .. حاول أن يفكر .. إن يتساءل مع نفسه هل يخرج إليها متعللا بأى حجة .. هل يظل هكذا مختبئا كالفأر، ولكنها قد تدخل عليه .. هل يفاجئها بظهوره ويصرخ فى وجهها بأنها السبب فى كل شىء، هل يلعنها ويلعن تفكيرها المستهتر الذى أدى به إلى مستنقع الرذيلة، أم يتوسل إليها أن تغفر له خطيئتة ..هل ..

ولكنه أنتبه فجأة على صوت هدى وهى تردد :

ـ ماذا بك يا أحلام .. ماذا حدث أخبرينى .. وأين كنت طوال هذه الفترة.

وكأنها كانت تنتظر تلك الكلمات حتى انفجرت فى بكاء مرير وهى تولول فى إنكسار :

ـ شىء فظيع .. لم أعد أرغب فى الحياة .. أريد أن أموت.

أطمأنت هدى لا ستسلامها واقتربت منها بهدوء ثم قالت وهى تربت على كتفها بحنان زائف :

ـ لا تقولى هذا .. أنت مازلت صغيرة وجميلة .. أخبرينى فقط، قد يمكننى مساعدتك هيا يا عزيزتى .. فأنا صديقتك.. أم أنك ..

ولكنها توقفت أمام سيل الكلمات المتلاحقة التى راحت أحلام تثرثر بها بغير تسلسل، ذكرت من خلالها كيف التقت بهشام وكيف انبهرت بكل شيء يحيط به أو بهشام نفسه .. أخبرتها بدوامة الأوهام التى دارت بها إلى أن أوقعتها فى الخطيئة وكيف تحركت الخطيئة فى أحشائها .. و .. كيف أختفى.

.. لاتتصورى كيف كانت صورتى فى عيون الممرضات. وأنا بمفردى .. وكيف لا حقتنى الهمسات بعد أن دفع هشام مقابل العملية .. وانصرف .. لاأريد أن أعيش .. لا أعرف كيف اتصرف .. ماذا سأقول لـ ..

ولكن هدى تقاطعها وهى ترفع من نبرة صوتها .. كان يهمها أن صوتها يرتفع لكثر .. ينساب إلى آذان الدنيا .. وإلى عمرو .. قائلة فى دهاء :

ـ لابد أنه يحبك وقد يأتى للزواج منك .. و ..

انتفضت أحلام وهى متهالكة ورددت :

ـ لا لن يفعل .. ولن أفعل .. أنا أريد أن ..

ولكنها أطلقت صرخة من أعماقها كادت أن تقتلع قلبها من خلالها عندما فوجئت بعمرو يقف أمامها فى ذهول وهو يردد كالمعتوه:

ـ مستحيل .. مستحيل ..

الجم الذعر لسانها وهى تنظر إليه بعينين جاحظتين ثم هرولت بكل قوتها إلى الخارج .. بينما اقتربت هدى من عمرو وهى تحاول أن تبدو فى أحسن حالاتها .. ثم قالت بصوت شهرت به انوثتها فى وجهه :

ـ اجلس يا عمرو .. لاتشغل بالك بهذه الخائنة .. هى لا تستحقك .. فأنت ...

ولكنها فوجئت بصفعة مريرة فجرت خيوط الدماء بين شفتيها وهو يصرخ فى وجهها كالمجنون :

ـ أغربى عن وجهى .. أنت السبب فى كل البلاء .. و ..

اندفع متجاوزاً اياها إلى الخارج ثم تسمر فى مكانة ملتفتا إليها قائلاً بحدة مكتومة :

ـ ستدفعين الثمن يا هدى .. سأعرف كيف ..

ولكنها سرعان ما كشفت عن وجهها الآخر .. واقتربت منه بثقة استفزازية وفى عينيها بريق التحدى .. ثم قالت:

ـ ألا تدفع ما عليك أنت أولاً ..

ثم أوصدت الباب بقوة من خلفه.

كان الطريق مظلماً، والليل يكاد يشعر به عمرو يجثم على صدره وهو يسير بخطوات متعثرة .. لا يدرى إلى أين يذهب .. كانت صور الماضى تتلاحق فى خياله وهو يقاوم دموع الأسى بين جفنيه .. وكأن لاعماقه عيوناً ترى، فحشدت له مع خطواته كل أحداث الماضى الذى كان يوماً يمثل أجمل ما فى حياته .. رأى أحلى اللقاءات ولهفة الاشواق .. انصت لأحاديث الأمانى وأحلام المستقبل، رأى دموع الفرحة فى عينيها كلما حققاً خطوة أختصر بها من طريق البعاد الذى يفصل بينهما .. تلمس فى كيانه حديثها الدافىء وابتسامتها الحانية .. رأى الحب والحنان والوفاء رأهم جميعاً يتقمصون فجأة أنياب التدمير والجبروت وتحولت تلك المشاعر إلى سلاح فتاك .. وكانت طعنة الغدر.

لم يستطع أن يوقف نزيف الدمع من عينيه، عندما صعد إلى حجرته بعد رحلة شاقة قطعها على قدميه .. وامتزج بكاؤه بنحيب تلاطم صداه بين الجدران .. كان يبكى نفسه التى أحتقرها يوما وألقى بها طواعية بين براثن الفسق والخطيئة .. كان يبكى ضميره الذى

أثقل عليه يوماً بكل ألوان الضغوط، حتى كاد أن يخمده بلا صحوة ثانية .. بكى حاله وحياته، ومزقته الحسرة على ملاحقة البؤس له، فبكى يتمه وإحساسه بالضياع، وتمرغ فى أحزان الندم حتى اطمسته خبيبة الأمل.

أدار راسه نحو الباب عندما سمع طرقات خفيفة عليه .. وهمس متساءلا :

ـ من

ـ افتح ياعمرو .. أنا بشرى ..

وكأنها البشرى التىهبطت عليه من دنيا الغيب .. فما كادت تعبر دهشتها لحالته المتوترة، حتى تحرك بركان الشجن من جديد فى أعماقه وراح يلفظ من جوفه حمم الحقيقة بكل تفاصيلها، لم يشعر بالخجل وهويسترسل أمامها .. ولم توقفه النظرة المريرة التى كانت تحيطه بها .. تحدث كثيراً .. كاشفها عن إحساسه الذليل تجاه نفسه .. كان يسرد قصة حياته كما لو كانت لا تعلم عنه شيئاً .. بدا غريباً وهو ينتفض فى ثورة ثم يتهالك فى مذلة وكأنه ينفض عن نفسه غبار الخطيئة أو يحاول ذلك .. كان ناقماً على الحب والأيام، على اليتم والحرمان .. على الناس ونفسه .. اهتزت للعناته المتتابعة وهى تخفى تحت جلدها رجفة خوف، وكأنها تتوقع أن يصيبها باحداها ولكنها استطاعت أن تتماسك بالرغم من قسوة المفاجأة عليها، بل

حاولت أن تحتفظ على وجهها باسارير هادئة حتى تساعدة على الأمان. ولكنه كان كالزلزال الذى بدأ ولن يوقفه إلا دمار نفسه. مما جعلها تخرج عن صمتها دون أن تدرى وفاجأته قائلة :

ـ لا تحاول أن تلتمس المعاذير لنفسك .. أنت المسئول عن كل ما حدث لك.

التفت إليها متأهباً للدفاع عن نفسه :

ـ أنا المسئول عن خيانتها .. وعن خطيئتها .. هل أنا المسئول عن ظلم الأيام لى ومطاردتى المستمرة بشبح الحرمان والخوف .. أنا السبب فى ظروفى فتتساقط تباعاً مع أيامى كأوراق الخريف .. هل أنا ..

ولكنها تقاطعه بحدة بعد ما تأكدت من أنه ينصت إليها :

ـ كنت تلهث وراء رغباتك المكبوتة .. بهرتك حياتك الجديدة وظننتها قمة السعادة .. استسلمت للخطيئة ثم بدأت تبحث لها عن مبررات .. فقأت عيون الرضى لتحملق بعيون الآخرين ..فلم تحسن الأختيار .. أليس كذلك ؟

أخذته الدهشة لثورة بشرى وسكن برهة يستجمع فيها أفكاره ثم أجاب :

ـ أنا حاولت أن أتخلص من وحدتى .. حاولت البحث عن انتمائى .. أن يكون لى وجود واسرة تخصنى وحدى كالآخرين .. كيف لم أحسن الأختيار .. أنا لم الجأ إلى بيت من بيوت الدعارة، بل سلمت قلبى لإنسانة من أسرة لها أحترامها .. أسرة لها من العلم والثقافة شأن كبير .. أسرة تعيش عصرها بكل معانى التحضر والتحرر .. اليس هذا من شأن الأسر الكريمة .. أنا لم أخطىء الطريق وإنما القدر هو الذى يقف داعما لى بالمرصاد. وكأن قد كتب على أن أعيش وحيدا تتعسا .

بدت وكأنها تحاورة لتتصل إلى أمر يرضيها ..وقالت بإنفعال:

ـ فرق كبير بين التحرر الذى تتحدث عنه وبين التسيب الذى تعايشت معه. لا أحد يقبل التزمت والكبت .. أى فتاة اليوم تذهب للنادى .. تعمل .. لها صديقات وأصدقاء .. تمارس هواياتها .. ولكن .. وهى مدركة تماما بأن الحرية لها قيود لا ترحم إذا تجاوزتها فلن يكون مصيرها خيراً من صديقتك أحلام.

ـ أنا حاولت أن أوضح لها تلك الأمور.

ـ أنت حاولت .. ولكنك لم تدافع عن حبك .. لأنك نفسك كنت تريد الخوض فى التجربة ..وربما أعجبتك الفكرة.

استشاط مرة أخرى وهو ينهض من مكانه قائلاً :

ـ أنـا اعـرف السـبب فـى كـل مـا حـدث .. أنهـا هـدى .. تلـك اللعينة اللعوب سـأجعلها تندم علـى حياتهـا .. سـأدمرها كمـا حـاولت تدميرى .. سوف ..

ولكنها تقاطعه بحزم لم يعهده منها من قبل :

ـ كفى .. كفى سعيا وراء الوهم .. كفى بحثـاً عـن الضيـاع .. لقد مضت سنوات طويلة وحان الوقت الذى يجب فيه أن اقول كلمتـى .. أن أطالب بالأفصـاح عـن وجـودى .. ولـن أدعـك تقـدم علـى هـذا الهراء .. إلا إذا كنت مازلت تحبها ..

ـ أنا لا أفهمك يا بشرى ..

اسقطت نظرتها إلى الأرض .. وإجابت فى همس كانها تحـدث نفسها :

ـ أنا أدافع عن حقى ..

أقترب منها بهدوء حيث أزعجه انفعالها .. متسائلاً :

ـ تدافعين عن ماذا يا بشرى .. هل ..

التفتت إليه صارخة بصوت يغلفه الانين :

ـ أدافع عن حبى لك .. لأنى أحبك .. أتعلم .. أحبك..

و ..انطلقت مسرعة خـارج الغرفـة وهـى تقفـز فـوق درجـات السلم وكأنها تسعى للانتحار من فوقه ..

تركت كلماتها الأخيرة لتخترق مسام كيانه وتحتمى فى قلبـه .. كـانت نبضاتـه تدق بعنـف فتتدفـق منهـا أحاسيس جديـدة سـرت فـى شرايينه فى تألف غير متوقع .. وإن كـان لـم يكـن فـى الحسبان ذات يوم .. ولكنه كان أملاً يصعب تحقيقه بالنسبة إليه. وخاصة إنهـا أبنـة العم الذى قام بتربيته وإحتضانه بعيـداً عـن دوامـات التشـرد .. ولكـن المفاجـأة أنـتزعت من تفكيرة أحـداث المـاضى القريـب بـل وأخمـدت ثورته وهياجه.

تراجع برأسه على مسند المقعد، وراح يستطلع الأفـق البعيد كأنه يبحث عن إجابة لتساؤلاته لعلها تأتيه من الغيب

.. هل تحبنى حقاً، أم إنها تحاول إنقاذى .. هل ستغفر لـى ذلـك الماضـى اللعين.

.. لماذا لم تدافع عن حبهـا مـن قبـل .. لمـاذا لـم تكشـف عنـى ستار الخوف الذى كان يحول بينى وبينها طوال السنوات الماضيـة .. هـل ستصدقنى يومـاً .. هــل كنـت أحبهـا دون أن أدرى .. أيكـون إحساسى بالضعف أمامها هو السبب فى محاولاتى المستمرة للهـروب من الاستجابة لمشاعرها نحوى .. أيوافق عمى .. يا إلهى .. اتلهمنى الشجاعة لاتخاذ القرار.

بدا الإرهاق مسيطراً عليه وهو جالس فى شقة عمه وقد قضـى الانتظـار على البقية الباقية من مقاومته، كادت تفضحـه عيونـه الذابلـة حتى أن زوجة عمه تساءلت إن كان مريضاً أو فى أحتياج إلى عـون

.. ساعات طويلة قضاها وهو يقطع بها الليل وأغلب النهار مفكراً فى قراره، وبالرغم من كل الهواجس التى تقاذفته إلا أنه بدا مطمئناً لقراره، وسعيداً به حتى ولو انتهى لغير صالحه.

أجتاح كيانه إحساس بالخوف بمجرد ظهور عمه أمامه، ولكنه تمالك فى أصرار وهو يخبره برغبته فى الأرتباط من بشرى .. كانت لحظات قاسية سبقت إجابة العم .. شعر بها وكأنه فى إنتظار حكم بالإعدام على جريمة هو غير مرتكبها .. تذوق مرارة الظلم وهو يزدرد ريقه وقد نكس رأسه قليلاً وكأنه يحول بين صدره وبين طعنة أخرى قد لا يحتملها فتصرعه.

تقدم العم منه بثبات ، ثم وضع كفه على كتفه برفق قائلاً :

ـ الآن فقط إذا مت فسأشعر بالاطمئنان على بشرى.

انتفض بقوة لا يعرف مصدرها.

ـ أحقاً يا عمى .. أقبلت إرتباطى ببشرى

تداخلت ضحكة العم وزوجته التى لاحقته قائلة :

ـ لولا خوفى من عمك لكنت فاتحتك فى الأمر لتقدم عليه..و..

ويقاطعها زوجها وهو يوليه ظهره متجهاً إلى مقعده ثانية :

ـ أنت شاب لديك كل مواصفات الرجل المسئول . كنت أراقب تصرفاتك منذ فترة طويلة وفى كل مرة أزداد إعجاباً بك .. كنت سعيداً بأخلاقك وبإتزانك ..

ولا أخفى عليك كنت أنتظر منك البادرة حتى يطمئن قلبى.

تلفت عمرو حوله كأنه يخشى أن يتدخل إنسان آخر فجأة ويبلغ العم بأنه كان مخدوعاً فى أخلاقه وفى تصرفاته .. ولكنه سرعان ما هدأ عندما خرجت إليه بشرى وعلى شفتيها إبتسامة الرضى وكأنها تشد من أزره ثم جلست تحيطه بنظرة هادئة غاصت متسللة إلى أعماقه فى حديث صامت طويل.

قال فى نفسه :

.. ترى ماذا يدور فى عقلك يا بشرى.

وسرعان ما استعاد واقعه أمام ضحكة عمه المجلجلة وهو يقول:

ـ على كل حال أمهلنى بضعة أيام للتفكير فى القرار .. هذه الأمور لا تؤخذ بتلك السهولة .. فما يزال أمامنا مشوار طويل .. الحديث عن المهر والشبكة .. و ..

استطرد فى الضحك من أعماقه وهو يواصل قائلاً :

ـ والسؤال عنك يا أستاذ عمرو

ومرة أخرى تنسحب الدماء من وجهه مختلساً نظرة سريعة إلى بشرى التى بادرته بابتسامة رقيقة، ثم لحقت بكلمات أبيها قائلة :

ــ وأنا من رأيك يا أبى .. يجب التحقق من كل شىء .. فربما يكون له ماضٍ ..

وبسعادة بالغة عقب العم قائلاً :

ــ ممكن التجاوز عن كل شىء .. ولكن بشرط واحد فقط.

تجمعت كل حواس عمرو فى أذنيه فى إنتظار ذلك الشرط، ويسارع العم متظاهراً بالجدية قائلاً :

ــ أن تذهب معى غداً إلى البلد لنرى ما حدث فى حساباتنا.

تراخت أعصاب عمرو وهو يجيب :

ــ سأكون جاهزاً فى الصباح ياعمى ..

ولأول مرة يشعر عمرو بأنه ينتظر شيئاً قد سعى إليه .. سنوات طويلة مضت وهو يترقب ما يجود به الغيب ولا يملك غير الإقرار به، لأنه غير قادر نفسياً على تحديد ما يريده .. كان مستسلماً لا مسالماً، حائراً لا مفكراً .. يعيش غير متعايش .. مكابراً لا مكافحاً .. مقهوراً لا مطيعاً .. كان غريباً بين الأقرباء .. وقريباً وسط الغرباء .. مقيداً.. كان يشعر بأنه شاهد على المجاميع ولم يكن طرفاً .. سنوات طويلة وهو يعيش على هامش الحياة .. كيان متحرك،

وجسد له نبض، ولسان له صدى، وعيون ترى ولا تشعر، كان كياناً بلا ظلال.

ولكنه فى هذه الليلة شعر بأنه قد ولد من جديد، تذوق الأمل بحلقه قبل أن يستوعبه بفكره .. وكأنه تخلص فجاة من كابوس عنيد قد جثم على صدره طوال ليل متصل مع الأيام .. شعر بأنه واحد بين الآخرين .. وكالآخرين له حق القرار والأختيار.

ومن أجل هذا كان مشرقاً فى صباح اليوم التالى. سعيداً بنفسه مزهواً بوجوده .. بدت خطواته على السلم وكأنها مطارق فوق رؤوس الخطيئة، كان لدقاته على باب عمه رنين لم يعهده من قبل، وأبتسامته تفوح منها رائحة الأمل والأمان .. لم ينتظر طويلاً .. كان عمه أكثر بشاشة وتفاؤلا عند استقباله كان هو الآخر فخوراً بحصاده .. سعيداً بذلك الغصن الأخضر الذى طواه تحت رعايته سنوات ليست بقليلة حتى أينع وبات شابا تتضح الرجولة من عينيه وبادره بحنان قائلاً :

ـ هيا يا ولدى حتى نلحق بالقطار ..

وما كادا ينتهيان معاً من درجات السلم حتى استوقفهما جمع من الرجال الغرباء وأحاطوا بهم .. ثم تقدم أحدهم من عمرو قائلاً فى جدية :

ـ أنت عمرو مصطفى حسن ؟

ـ نعم أنا ..

ـ السيد وكيل النيابة يريدك فى أمر ما ..

تحشرجت الحروف بين شفتيه وهو يهمس مصدوماً :

ـ أنا ؟

التفت إلى عمه الذى تصنم فى مكانه والدهشة تعصف بوجهه، ثم تمالك نفسه بصعوبة وهو يستطرد متسائلاً :

ـ هل لى أن أعرف السبب ؟

ـ فى الحقيقة لا أعرف .. لقد حضرت بناء على إشارة بإستدعائك ..

تحسس شفيته بطرف لسانه وأجاب :

ـ إذن .. تفضلوا وسألحق بكم أنا وعمى .. لأننى ..

قاطعة الرجل بحزم :

ـ بل ستأتى معنا .. ويمكن لعمك أن يحلق بك فيما بعد.

اهتزت قدماه وهو يستقبل رعشة قوية اعترت جسده بعنف .. وتحرك من خلال دفعة خفيفة من يد الرجل، استقل السيارة التى كانت فى انتظارهم .. تلفت حوله فى وجوم، التفت نظرته بعين عمه المرتعبه .. انتبه إلى نفسه وهو محشور وسط المجموعة لا أحد يحدثه ولا أحد يلتفت إليه .. وأنكمش القوام الفارغ ، وذبلت النظرة اللامعة واضطربت النفس الهادئة .. وشل تفكيره وهو لا يعلم شيئاً غير أن السيارة قد تحركت به، وبأنه قد بات فجأة بعيداً جداً عن عمه الذى تصلب فى مكانه دون حراك يتابع السيارة حتى توارت تماماً من أمامه.

كان يسير بخطوات متهالكة بين رجلين فى الردهة الطويلة .. ثم تقدم أحدهما إلى غرفة جانبية ليظهر بعدها قائلاً :

ـ تفضل .. السيد وكيل النيابة فى انتظارك ..

لم يستطع أن يتبين وجه المحقق جيداً حيث كانت الرهبة تغشى عينيه عند دخوله المكتب .. جلس بإشارة صامتة .. وما كاد يتفوه بكلمة واحدة حتى بادرة المحقق بهدوء قائلاً :

ـ أنت عمرو مصطفى حسن ؟

ـ نعم أنا .. هل ..

ولكنه صمت مبتلعاً كلماته أمام النظرة الفاحصة التى شملته من خلال عيون وكيل النيابة الذى فاجأه :

ـ هل تعرف واحدة تدعى هدى محمود ؟.

تلقى السؤال وكأنه صفعة على وجهه أفاقته من غيبوبة الحيرة.. وهمس فى نفسه قائلاً :

.. إذن فعلتها اللعينة .. تريد أن تشوه سمعتى وتذلنى .. قدمت شكوى ضدى مطالبة بالمبالغ التى أفترضتها منها .. تلك العاهرة سوف ..

ولكنه توقف من جديد على صوت المحقق :

ـ لم أسمع منك إجابة ..

ـ نعم أعرفها ..

ـ ما مدى علاقتك بها ؟

ارتجفت. أسارير وجهه دون أن يتفوه بكلمة .. مما دعا وكيل النيابة أن يعيد عليه السؤال مرة أخرى .. فأجاب :

ـ كنت ألتقى بها أحياناً ..

ـ أين ؟

ـ فى .. فى منزلها ..

ـ متى رأيتها آخر مرة ؟

أجاب بصوت مضطرب وهو يتأهب للدفاع عن نفسه :

ـ أول أمس .. ولكن ..

لاحقة المحقق فى إصرار .. وقد تبدلت نبرة صوته قائلاً :

ـ أسمع يا عمرو .. أنت تعرف جيداً لماذا أنت هنا الآن .. ولذلك أريد منك أن توفر على وعلى نفسك المراوغة غير المجدية .. وعليك أن تذكر لى كل التفاصيل ..

ثم أشعل سيجارة وكأنه يستعد للاسترخاء أو الانصات الطويل .. واستطرد متسائلاً فى برود :

ـ هه .. كيف قتلتها .. ولماذا ؟

انتفض عمرو فجأة وكأنه مسه الجنون .. وأفلتت من شفتيه صرخة مستغيثة :

ـ ماذا .. أنا ؟

ولكن وكيل النيابة يوقفه بإشارة بيده توحى له بالجلوس مرة ثانية .. ثم إزداد فتوراً وهو يقول :

ـ لو كانت هـذه التصرفـات تجـدى .. مـا كـان أحـد الآن ينـال عقابه من أى جريمة يرتكبها .. فلا داعى للمراوغة وأذكر لـى كيـف قتلتها .. ولماذا ..

ـ أقسم لك إنى لم أقتلها .. ولماذا أقتلها ؟

ـ أنت وحدك تعرف السبب ..

ـ أى سبب .. لم يكن بيننا شىء .

وقف المحقق هذه المرة وبادرة كأنه ينقض عليه :

ـ ألم تكن تحبها ؟

ـ لا ..

وهى .. أكانت تحبك ؟

سارع قائلاً :

ـ لا أعتقد .. فلقد ..

ولكنه يقاطعه بالحاح :

ـ إذن ما هى طبيعة العلاقة بينكما .. فكلاكما لا يحب الآخـر .. فلابد من أن بينكما مصـالح أخرى .. هل كانت لـك علاقـة بتجـارة العملة أيضاً ؟

رفع رأسه إليه وبدا وجهه شاحبا وهو يقول :

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المواضيع .. أنا لم أقتلهـا .. هـى كانت متعددة العلاقات .. ولها رحلات غريبة ومريبة .. أنا ...

ومرة ثانية يوقفه :

ـ أين كنت مساء أمس ؟

ـ فى أى ساعة ؟

ـ بعد العاشرة مساء ..

ـ فى حجرتى ..

استدار ليجلس على معقدة ثانية ثم قال :

ـ هل يمكنك إثبات ذلك ؟

وكادت أن تفلت من عمرو كلمة تزج باسم بشرى .. ثم أجاب بهدوء :

ـ كنت نائماً ..

ـ المعلومات عنك تؤكد بأنك لم تعتد العودة إلى منزلك كل ليلة قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً .. فلماذا بالأمس بالذات ؟

ـ ماذا تقصد ؟

وعاد المحقق لهدوئه وهو يقول مستنتجاً :

ـ أقصد إنك ارتكبت جريمتك ثم عدت إلى المنزل متسللاً دون أن يراك أحد ..

ـ لم أقتلها .. لم أقتلها ..

لم يعره المحقق انتباها، وضغط على زر بجواره ظهر بعدها أحد الرجلين المنتظرين بالخارج .. ثم التفت إلى عمرو قائلاً :

ـ انتظرنى بالردهة الجانبية إلى أن أبت فى أمرك ..

. وبصعوبة نهض عمرو من مكانه، وبدأ يخطو بجوار الرجل بخطوات أقرب للزحف، وما أن غادر الحجرة إلى الردهة الجانبية حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مجموعة تنبأ بمعرفتهم من خلال تواجد أحلام .. وأدار عينيه للطرف الآخر حيث كان عمه جالساً في وجوم وقد جاوره شيخ مسن لم يصعب عليه معرفته من خلال العصا التي كان مستنداً عليها وأدرك أن الجد أمين جاء بدوره وراء عائلته الصغير. ليطئن عليها.

توخى مقعداً منفرداً وجلس فوته وهو يختلس بعينيه النظرات تجاه المجموعة الواحد تلو الآخر.

بدا على وجه فارس أمين أنه الآخر قد حامت حوله الشبهات وبأنه قد فقد القدرة على التفكير من كثرة محاصرة أسئلة المحقق الذى فاجأه بالصك الموقع منه الذى وجده فى حقيبة القتيلة، مما حرك المؤشرات تجاهه بأنه القاتل ليتخلص من دينه ويسترد الصك.. ولم يستطع فارس أن ينفى التهمة عن نفسه بالرغم من كل محاولاته التى كلفته الكثير أمام أبيه وأبنته، لقد كان إحساسه بالخطر أقوى بكثير من تمالكه أو محاولة المراوغة فتحدث كثيراً .. وكشف عن حقيقة الأمر تخلصا من الورطة الأكبر. وتحدث عن إجتماعه الأخير فى شقتها مع توفيق بك وبها فى وجود زوجته فتحية .. والنتيجة اذى أنتهت بها تلك الجلسة من تهديد ووعيد ومن رضوخ ومذلة ومن دوامات الحيرة التى سقط فيها، ومن طاحونة الحقد التى راحت تديرها هدى فوق رأسه إنتقاماً من أحلام فى شخصه، كلها أمور جعلته فى النهاية يجلس وهو مغمض الجفنين وكأنه يخفى عن الآخرين حقيقة ما يجيش

فـى صـدره مـن أحاسيس بالمذلـة والعـار .. المذلـة التـى سـعى إليهـا بإرادتـه والعـار الـذى لطختـه بـه ابنتـه الوحيده تحـت شـعار التحـرر والتمدين .. فأغلق عينيه حتى لا تكشفه نظرة الندم المقهورة وسكن صامتاً فى هدوء وكأنه لا يرغب حتـى فـى الدفـاع عـن نفسـه، وكـأن الموت بات أقرب إلى رغباته من الحياة بعد ذلك فى مواجهـة الدمـار الذى لحق بأسرته.

حـاول عمـرو أن يلفـت نظـر أحـلام نحـوه، لعلــه يسـتطيع أن يستزيد استفساراً من خلال نظرتهـا ولكنـه فشـل فـى ذلـك، لانشـغالها تماماً عنه، حيث كانت مسلطة نظرها تجاه هشام الذى أتى بدوره هـو الآخر كواحد من الذين تربطهـم علاقـة قويـة بالقتيلـة .. كـانت أحـلام تحاصره بعينيها وكأنها تلقى عليـه بمسؤلية مـا حـدث، كـان لا شـىء يثير قلقها غير ما كان بينها وبين هشام .. فـلا مقتـل هـدى ولا إتهـام أبيها ولا الاعدام الذى قد ينتظـر عمـرو .. لاشـىء يشـغل بالهـا غير هشام، كانت تفكر فى أشياء كثيرة .. تريد أن تنقض عليه لتبتر لسـانه الـذى أسـمعها أعـذب الأمـانى .. أن تفقـأ عينيـه التـى طالمـاً أحاطتهـا بالحنان، أن تكتم أنفاسه التى داعبت أذنيهـا حتـى استسـلمت لأحضـان الخطيئة معه .. تريد أن تحثه على أى شىء .. أن يصرخ أن ينتحـر أويركع نادماً .. تريده يقـدم علـى أى شـىء .. يقـف معترفـاً بذنبـه .. أويتقدم لطلب يدها، يطلبها من نفسه فهى فقدت أنتماءها للآخرين كما فقدت من قبل أحترامها للجميع .. ولهذا بدت شاردة وهـى تحـاول أن تستقطبه بنظراتها.

مزقه أحدهم الصمت منادياً :

ـ السيدة فتحية عبد الفتاح ..

حاولت أن تبدو متماسكة وهى تجيب :

ـ نعم ..

ـ تفضلى عند السيد وكيل النيابة

دخلت .. مارست كل فنون الكلام أمامه، أنكرت علاقتها بأى شيء وبكل شيء، نفت كل ما يمكن نفيه .. وأمام سؤاله عن طبيعة علاقتها بهدى .. قالت :

ـ كانت سيدة ظريفة .. إجتماعية .. لها معارف كثيرة .. لا أعتقد أن لها أعداء .. كنت أعاملها كأخت صغيرة، لم يكن بينى وبينها ما يثير الشبهات..

صمتت برهة استنفرت فيها ذكاءها عندما فاجأها المحقق قائلاً:

ـ وماذا عن علاقتها بزوجك ..وبالشيك

ـ لا أدرى

ـ ألم تثر غيرتك من قبل وبجرأة لا تظهر من داهية مثلها .. أجابت بتلطف :

ـ لست قبيحة لهذه الدرجة

ـ ما هى طبيعة علاقتك بتوفيق النادى

ـ علاقة عمل

ابتسم المحقق بهدوء وهو يقول :

ـ وظيفتك كمديرة للعلاقات العامة تتضمن فى إختصاصاتها تجارة العملة .

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع .. و ..

وكأنها تملك القدرة على قراءة أفكار المحقق، فكان لها لكل سؤال جواب ولكل حصار منفذ .. بدت هادئة إلى حد الإثارة، حتى إنها استقبلت فى النهاية قرار التحفظ على زوجها وكذلك عمرو بفتور غريب أثار دهشة المحقق نفسه، بينما خرج فارس أمين عن صمته بعد رحلته الطويلة مع الشرود وراح يردد على مسامعها وهو فى طريقه إلى التحفظ قائلاً :

ـ عليك اللعنة .. أنت السبب .. أنت السبب ..

فى الوقت الذى حاول فيه عمرو الاقتراب من عمه وهو يتحامل على نفسه ليبدو فى صورة المتماسك .. ثم همس :

ـ صدقنى يا عمى .. أنا برىء

ولكن العم اشاح بوجهه عنه كأنه يخفى الحسرة المريرة التى سكنت مقلتيه وهو يرى أبن أخيه الذى تولى رعايته يوماً بعد يوم وهو يساق إلى حيث يكون القتلة أو المجومون ..



- ٨ -

كتمت بشرى صرختها وهى تبتلع مرارة الحسرة والظلم فى جوفها .. كانت تراقب ثورة أبيها وهو ينقل بدوره ما علمه بشأن عمرو .. بدا فى زمجرته كالرياح التى تعصف بكل شىء .. ثائراً كالبركان البكر الذى طال انتظاره للانفجار، هائجاً من جراح غائرة فى شرفة وعرضه .. نادماً كالعائد من غيبوبة فشل طويلة.

حاولت ألا تصدق ما تسمعه .. لم تعد ترى غير الصورة التى فى خيالها ووجدانها .. ولكنها الحقيقة.

الحقيقة التى جعلت من أبيها يستسلم لمدامع الحسرة على أين أخيه والتى جعلته يؤكد بأنه كان مخطئا فى اختيارة. الحقيقة التى ألقت بها وسط دوامات الظنون والشكوك.

كان صوت الأب مجلجلاً وهو يردد فى صراخ :

ـ لقد خدعنى .. خدعنا جميعاً .. كان فاسقاً سكيراً .. الآن أصبح قاتلاً .

ويلتفت إلى بشرى مستطرداً :

ـ أغفرى لى يا ابنتى .. كدت أفرضه عليك .. أحمد الله أنك لم تصبحى زوجة لهذا القاتل .. لم أكن أعلم أنه مشحون بالعقد والأحقاد.

ثم يعود فى كلمات هستيرية وكأنه يحدث نفسه :

ـ أنا لم أقصر معه قط .. لقد أوليته كل رعايتى، ولكنه ليس منا .. أنه قاتل .. قاتل ..

توارت بشرى ببطء، وكأنها تسعى للإنسلاخ من ذلك الموقف العصيب، وبدأت تستجيب لاحساس غامض تسلل فجأة إلى أعماقها .. كأن يضغط على صدرها بعنف وكأنه دقات من الماضى تتوالى على رأس الذكريات .. خرجت للطريق وهى تستقطب الهواء بقدر رئتيها .. استعادت من ذاكرتها الموقف الأخير الذى جمع بينها وبين عمرو، واقتربت صورة اعترافاته عن آخر لقاء بينه وبين أحلام .. و .. ما أن قفز إلى مخليتها ذلك الموقف حتى اجتاح كيانها نداء خفى مردداً :

ـ ولم لا ..

وتحركت خطواتها تحت تأثير نوازع مبهمة .. بدت شاردة وهى تتفحص الوجوه من حولها .. كثيرة الالتفات فاقدة للاتجاهات، كانت تبحث عن شيء ليس له تجسيد ولا كيان .. تبحث عن معنى ليس له حدود ولا بنيان .. بلا طعم ولا رائحة ولا ألوان .. كانت تبحث عن الحقيقة.

وازداد الصوت فى أعماقها بوضوح أكثر :

ـ لم لا ..

لم تتردد وهى تستقل السيارة الأجرة، وكأنها أمام قرار ليس له بديل .. أقتحمت قلبها نبضة مرتجفة وهى تقف أمام منزل أحلام بالمهندسين، ولكنها سرعان ما تغلبت عليها ململمة لشتات توازنها وهى تصعد درجات السلم .. مضت لحظة متوترة أمام شقة هدى، خيل إليها أنها تسمع صراخاً من الداخل تحول صداه إلى قشعريرة شملت كيانها.

ومرة ثانية وجها لوجه مع أحلام .. كانت المفاجأة عنيفة .. والاستقبال فاتراً يخفى فى طياته العديد من المشاعر .. من خوف وكبرياء، وسلام وإنتقام، وخير وشر، كان لقاء بين نقيضين بالرغم من إشتراكهما فى مسار واحد.

بدت أحلام أكثر حنكة وهى تبادرها بقولها بعد ما أجلستها فى حجرة الاستقبال :

ـ هل لى أتساءل عن سبب هذه الزيارة الغريبة ؟ .

ـ أعتقد إنها زيارة طبيعية .. ولنت بالتأكيد تعلمين سبب وجودى هنا.

حاولت أحلام أن تبدو هادئة وهى تقول :

ـ إذا كان الموضوع يخص عمرو .. فأنت تعرفين مكانه..و..

قاطعتها بشرى فى انقضاض :

ـ بالمناسبة .. أحب أن أعلمك بأن عمرو قد ذكر لى كل شىء عن الليله السابقة للحادث ..

ـ لازلت لا أفهمك ..

وجدتها بشرى فرصة لكى تتأملها .. وكأنها تبحث عن العينين اللتين سحرتا عمرو وعن الابتسامة التى أغدقته بالحنان .. وعن الصوت الدافىء والقوام الفاتن كأنها تبحث عن السر فى كل شىء .. فلم تجد شيئاً .. أو أنها لم ترد أن تجد شيئاً من هذا القبيل .. فلم تر غير وجه قبيح وشفتين لم تستطيعا أن تخفيا أنياباً شيطانية، وعيوناً لا تحوى غير الشر والكراهية، وجسداً مترهلاً مضغوطاً وصوتا أجش مزعجاً .. هكذا طاب لها أن ترى ..

ثم أجابت بحدة مكتومة :

ـ أقصد أن هناك ألف مبرر يجعلك تقدمين على هذا التصرف.

ـ أى تصرف !!

نهضت فجأة قائلة :

ـ أن تقتليها مثلاً .. أن تتخلصى من منافستك التى تعرف عنك الكثير وعما أصابك أكثر ..

وهنا نسيت أو تناست أحلام كل الظروف المحيطة بها .. قبرت فى ذاكرتها أن أباها متحفظ عليه، نسيت كل هذا وراحت تقهقه وكأنها تولول .. كانت تضحك فى هستيريا تعمدت أن تبالغ فيها .. ثم صمتت فجأة وملأت نظرتها بكل الحقد والكراهية قبل أن ترسلها نحو بشرى .. قائلة :

ـ لم يكذب عمرو .. عندما صورك لى بإنك إنسانة غبية .. تافهة .. أنت تحاولين استجداء حبه مقابل كرامتك .. لأنك بلا كرامة .. وإذا كنت أنا قتلت هدى فعلاً .. فعمرو قتلنى قبل أى شىء .. قتلنى بعجزه .. قتلنى بسلبيته تجاهى .. أما أنت فلا لوم عليك لأنك حقاً إنسانه تافهة تعيشين فى تقوقع على هامش الحياة .. إذا كان لك حياة .. و ..

واتجهت نحو الباب صارخة فيها :

ـ والآن أخرجى من هنا وابحثى عن أنيس آخر .. أخرجى يا مسكينة .. فأنت ..

وكأن زلزالا قد هوى بكل شىء فجأة، جعلها تبتلع الكلمات أوتموت فوق شفتيها عندما ترامى إليها صوت جدها القوى صائحاً فى حزم بالغ :

ـ كفى ...

وظهر من غرفته وهو يسير بخطى ثابتة مقترباً منها قائلاً :

ـ كنت أعتقد أنك فقدت الأخلاق فقط .. أو إنك فقدت أحترام الآخرين فقط .. ولكنى لم أتصور إنك أصبحت بليدة بلا قلب أوشعور.. و ..

ثم التفت إلى بشرى مستطرداً :

ـ أعذريها يا ابنتى .. فالكرامه والإباء فى نظر أمثالها هو الغباء بعينه، والشرف والاتزان يمثل بالنسبة لهم التفاهة .. إنهم اعتادوا على التبجح واللامبالاة .. الحرية لا تحمل إلا مفهوماً واحداً لديهم .. هو التسيب .. إنها ..

ولكنه توقف عن الكلام على أثر مباغته أحلام لبشرى وهى تندفع نحوها فى محاولة لصفعها على وجهها بقوة .. وصرخت :

ـ أتسبنى يا جدى من أجل هذه الحقيرة .. أخرجى يا ضائعة من هنا .. أخرجى وإلا ..

ولم تستطع أن تكمل من قسوة اللكزة العنيفة التى تلقتها على صدرها من رأس عصا الجد الفرعونية وهو ينهرها بغضب :

ـ لا فائدة .. لقد تأصلت جذور الشر فيكم جميعاً .. ترمون غيركم بالحقد وهو يسرى فى عروقكم. تحاملت أحلام على نفسها واعتدلت فى وقفتها وهى ترمقه بنظرة وكأنها تنفث سموم الحقد عليه .. ثم قالت بصوت أمتزج بدموعها :

ـ أكرهك .. لقد صدق أبى وصدقت أمى عندما قالا إنك كبرت وأصبحت مخرفاً .. انت حقاً مخرف ومجنون أيضاً .. إنك...

ولكنه يوقفها بإشارة من يده وقد انسحبت الدماء من وجهه وارتجفت شفتاه وهو ينظر إليها بعين أصابها الذبول فجأة .. وهمس بنبرة مضطربة :

ـ لا داعى لأكثر من هذا يا ابنتى .. لقد انتهى كل شىء .. أنا لست الآن غاضباً منك ولا من ابنى وزوجته لأنكم أصبحتم غرباء عنى .. وقد أكون أنا الغريب عنكم.

مضت لحظة صمت، مات فيها كل شىء حتى التفكير .. ودبت الحياة بعدها عندما تحركت بشرى بهدوء وهى منكسة الرأس فى ذهول مما تراه وكأنها تسترجع فى خيالها صورة أبيها بقامته التى تكاد تلامس سطح السماء فى نظرها .. ولكنها توقفت مرة ثانية عندما استوقفها الجد قائلاً :

ـ انتظرى يا ابنتى .. أنا راحل معك .. المهم أن أبتعد بك عن هنا .. المهم هو أنت .. فلم يعد لى متسع من الوقت .. ولا العمر .. انتظرى لكى أتكىء عليك ..

كان قرص الشمس ملتهباً وهما يسيران فى صمت على الطريق، وكأنهما غريبان قد ساقتهما الأقدار إلى دنيا غير دنياهما، أوشريدان قد فقدا مأواهما فجأة من خلال زلزال غادر دمر كل شىء

حوله، ولم يبق على شىء غيرهما، فمشيا يبحثان عن هويتهما .. كانا غرباء فى دنيا غريبة.

وفى النهاية وصلت بهما خطواتهما إلى حديقة كبيرة قد احاطت بها الأشجار العريقة من كل جانب .. كان يدب بعصاه على الأرض بضربات قوية حتى أن بعضها كان ينقد إلى الطين كأنه يتلمس شيئاً باحثاً عنه، بينما كانت بشرى تسير بجواره فى خشوع ورهبة وقد جمع بينهما حديث صمت طويل .. وعند ربوة قد ارتفعت قليلاً عن أرض الحديقة توقف الجد فجأة وكأنه قد خطا ما خطا حتى يصل إليها والتفت إلى بشرى قائلاً فى طيبة :

ـ هذا أفضل مكان يمكننى أن أحدثك عنده.

لم تعلق على كلماته ، واستجابت لطلبة دون إبداء أى أعتراض أواستفهام .. ثم عاد مستطرداً :

ـ هل تعاهديننى يا ابنتى ؟

لاحقته دون تردد :

ـ أعاهدك ..

ترقرقت ابتسامة حانية على شفتيه وقال :

ـ ألا تنتظرين حتى تعلمى ما تعاهديننى عليه ..

ورفعت عينيها إليه .. ثم أجابت :

ـ مثلك لا يطلب العهد .. إلا من أجل شيء عظيم

ـ قال بلاتردد فانصتى يا غالية .. لقد سمعتك وأنت تتحدثين مع ابنة ابنى .. وكانت كلماتك كأسمك .. بشرى .. أحسست من خلالها بالأمل، وخاب ظنى بأن الدنيا قد نتهى منها كل شيء .. كنت أراك بأذنى وأسمعك من ذاكراتى وذاتى.

ـ أنى اشعر بالذنب لما حدث لك الآن .. ولا أعرف كيف يكون أعتذارى ..

ربت على كتفها برفق .. وقال :

ـ لا تعتذرى .. ولكن واصلى مسيرتك.

ـ أى مسيرة ؟

ـ الشرف .. والعزة .. والإرادة .. يا ابنتى لقد علمت كل شيء بالصادفة .. وأنا لا أريد أن أتدخل فى حياتك الخاصة .. ولكن من واجبى أن أرشدك لحقيقة قد تكون غائبة عنك بحكم سنك الصغيرة .. ونشأتك الكريمة ..

حاولت أن تقول شيئاً .. ولكنه استطرد فى إصرار :

ـ لقد علمت بالصلة التى بينك وبين عمرو .. كما أننى أعلم شعوره نحوك، ألا أننى لا أعرف إحساسك نحوه.

سارعت بلا تردد :

ـ أنا أحبه .. و ..

قاطعها بحزم :

ـ وهو .. لا يحبك ..

ـ أنت تتصور أنه مجرم .. وأنا متأكدة من براءته.

ـ أنا لا أتحدث عن ادانته أو براءته .. أنا أتكلم عنك أنت .. قلبك البرىء وعاطفتك القوية الصادقة جعلتك ترين الدنيا وكأنها بلا خطيئة .. كم يؤسفنى أن أخبرك عن أشياء قد تؤلمك.

أستنفزت كل حواسها وهى تنظر إليه فى ترقب، بينما أشاح هو بوجهه عنها فى نظرة بعيدة كأنه يستعيد صورة باهتة من العالم الأخر، ثم أردف :

ـ هذا الشاب كنت اراه يومياً وهو يتسلل إلى شقة هدى كاللصوص .. كما أننى كنت ..

ولكنها لاحقته فى براءة :

ـ كانت نزوة ..

ـ وأحلام .. أكانت نزوة هى الأخرى ..

ـ أكتشف خديعتها له ..

شعر بالاحباط وهو يتساءل فى همس :

ـ وأنت ..

اهتزت أهدابها وكأنها لم تتوقع أنها طرف فى هذه العلاقة .. وأجابت :

ــ أنا .. أنا أحببته منذ الصغر .. كنت أرى فيه القوة والعزيمة.. أرى فيه الشهامة والطيبة .. أحببت إصراره وصموده .. كنت أعلم أنه يخشى أن يتقدم لطلبى فيرفض أبى وتكون القطيعة بينهما .. كنت أشعر بحبه من خلال نظرته الصامته .. كيف بعد كل هذا تطالبنى بالانسحاب ..

رفعت عيناها إليه وأكملت :

ـ أنت تتحدث لصالح أحلام حفيدتك .. تحاول أن تنقذ أبنك من حبل المشنقة فتتهم إنساناً برىء لا ذنب له .. أنا سأشهد بكل ما حدث .. سأخبر الجميع أننى كنت فى حجرته ليلة الحادث، كان يحدثنى عن توبته .. لقد أعترف لى إنه كان مخطئاً .. لا يمكن أن أصدق ما يقال عنه .. لا يمكن أن أخدع نفسى .. ولا أبيع ضميرى وحبى .. أنا ..

أوقفها بإشارة من يده .. قائلاً :

ــ انتظرى يا ابنتى .. أنا لا أحاول إنقاذ أبنى .. لقد فات الأوان .. هناك أكثر من طريق للموت بغير حبل المشنقة وأنا أشفق عليه من أيم لم يرها بعد .. أما أحلام فهى لن تستيقظ من حلمها إلا فى ليلة بلا قمر وهى أيضاً فى حاجة للشفقة .. فما أقصى يا ابنتى من ليل لا يتبعه نهار.

ـ وأنا ..

ـ هذا يتوقف على قرارك ..

ـ وأنت .. إلى أين ؟

ـ أنا أعـرف طريقـى جيـداً .. وأرجـو أن يمهلنـى القـدر حتـى أصل إليه.

طفرت بين جفنيه دمعة حائرة، كان قد طال سجنها وراء قضبان الصمت ولم يعد فى مقدوره التحمل والتظاهر بالقوة، فأستسلم لها وهى تنساب حتى تلامست مع طرف شاربه، وبدأ يتحرك بخطوة متثاقلة وهو يغرز عصاه فـى الأرض كأنـه يوقـظ البراكين تحتها .. وردد :

ـ الوداع يا بشرى .. الوداع ابنتى ..

ترددت وهى تتابعه مبتعداً .. أرادت أن تلحق به .. أن تطالبه بالبقاء بجوارها، أحست فجأة بأنها وحيدة بلا سند .. تمنت لو تستطيع الصراخ لعله يستجيب ويعود، ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا غير استجابتها لقطرات دمعها الدافىء وكأنه ينبئها بأن الرجل قد رحل .. غاب عن عينيها وهى تشعر برجفات الخوف تنبض فى أعماقها دون أن تعرف من أى شىء تخاف، ولأجل من تخاف، إحساس غامض إجتاح صدرها وهى لا تزال تقف فوق الربوة، تتلفت فى كل إتجاه كالطفلة الصغيرة التى فقدت فجأة من يقوم برعايتها .. كانت تبحث

عن المجهول .. عن القرار الذى وعدت به العجوز دون أن تعرف أسبابه .. كل ما كانت تدركه هو أن هناك قراراً يجب أن تتخذه، حتى ولو كلفها هذا الكثير ..

وكان قرارها بأن تساند عمرو فى محنتة بكل قواها، لم يستطع أبوها أن يحول دون تدفق إصرارها .. حاول أن يثنيها عن ذلك، بأن يثير مشاعرها نحو أبن أخيه .. ذكرها بخيانته بها، وبالإجرام الذى يخفيه تحت جلده .. بالعنف تارة وبالهدوء تارة أخرى، ولكنها كانت فى عنادها أصلب بكثير من كل محاولاته.. بكت فى لحظات الضعف وثارت فى غيرها، لجأت لأمها لعلها تجد من خلالها وسيلة لإقناع أبيها .. قالت بصدق :

كيف يترك عمرو هكذا بدون محام يدافع عنه.

لم تدم مقاومة الأب كثيراً أمام إصرارها .. بدت سعيدة وهى ترافقة للمحامى، وكانت أكثر إبتهاجا لأنها تقدم على تصرف هى مقتنعة به تماماً، كان إيمانها ببراءته مرتبطاً بإيمانها بالحق والخير، وإن كان والدها قد أبدى كثيراً من التحفظات على تصرفاتها الغريبة تجاه هذا الموقف.

ومضت الأيام .. والأحداث تتحرك بما كان متوقعاً وغير متوقع، حيث صدقت أحساسيسها بالنسبة لعمرو، جاء المحامى ليخبرهم ببراءته قبيل أى محاكمة لأن القاتل الحقيقى قد اعترف ..

كانت المفاجأة أقسى بكثير من كل توقعاتها .. لم تستطع أن تكتم صرختها وهى تقول :

ـ مستحيل .. الجد أمين ..

أخذها الذهول بعيداً، وبدت كالمسحورة وهى تحادث نفسها .. نسيت كل شيء، لم يلفت نظرها عدم عودة عمرو إلى حجرته، بالرغم من أنها كانت تتوقع ذلك، فهى تعلم أنه لن يستطيع مواجهة أحد بعد كل ما قيل .. لا تصدق كل الأحداث التى مضت عليها، أحست بالاحباط أمام ذلك الخبر الغريب وكأن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب، وتوقفت الأرض عن دورانها، وتساقطت النجوم من جفون السماء ليسبح الكون فى ظلام قاتم مخيف.

ليال طويلة وصورة الجد أمين لا تفارق خاليها .. كانت تشعر به يحدثها، أحست بكلماته وقد أنطبعت على رئتيها، فبدت وكأنها فى حوار متصل معه من خلال أنفاسها، حتى جاء موعد محاكمته وهى مازالت تأمل أن يكون الأمر على غير ما سمعت .. كان الخوف يثقل على خطواتها فيجعلها تسير وكأنها تزحف. الطريق إلى المحكمة طويل والحديث مع أعماقها أطول .. هل يمكن أن يكون قاتلا .. هذا الرجل الذى يتحدث عن الشرف والعزة والإرادة .. هل يمكن أن ينقلب الحب إلى كراهية والحنان إلى قسوة والخير إلى شر .. هل كان يخدعنى .. كيف يتحول السلام إلى حرب ودمار فجأة .. يمكن أن يكون شريراً فى صورة ملاك .. هل كل الناس أشرار .. كل الناس قتلة .. و ..

ودخلت المحكمة .. كانت القاعة مكتظة وكأن البشر قد جاءوا ليشهدوا على ذلك القاتل العجوز الذى غررهم جميعاً .. وغررها هى قبلهم .. مسحت القاعة بنظرة واحدة، استطاعت أن تتبين عمرو من بين الحاضرين، بينما جلست أحلام فى تمرد بجوار أبيها الكسير .. وبعيون خائفة متوترة التفتت فى هدوء تجاه القضبان، أحست بالقشعريرة تجتاح جسدها وهى تراه كعادته واقفاً فى شموخ ممسكا بعصاه فى ثبات، كاد أن يتوقف نبضها عندما أحست بنظرته مسلطة عليها.. لم ينكسر ذلك القيد عنها إلا عندما بدأ يعيد اعترافه أمام هيئة المحكمة مرة أخرى .. كان صوته قوياً وواضحاً .. وفى عينه بريق يعكس شموخاً وإباء يتفقده الكثيرون ممن هم أحرار خارج القضبان.. واهتزت المقاعد وما فوقها أمام صيحته القوية مسترسلا :

ـ نعم لقد قتلتها .. قتلت الخطيئة .. حاولت إنقاذ أبنى وأسرته الصغيرة من الهلاك .. حاولت إنقاذ ماض طويل عشت فيه وعاش من خلاله أجدادى .. نعم قتلتها .. قتلت رأس الأفعى التى راحت تنفث سمومها على كل أحبائى .. كنت أراهم يتساقطون الواحد تلو الآخر مثل أوراق الزهور التى فى حديقتى بعد أن أهملتها .. و ..

تحول بوجهه تجاه القاعة، فانكمش توفيق بك أمام نظرته وكذلك حاول أن يخفى هشام وجهه بعيداً عندما استطرد الجد قائلاً :

ـ أنا لست نادما على قتلها.. بالرغم من أننى أرى رؤوس أفاعى لا زالت تطل ولو كان فى مقدورى لحطمتها هى الأخرى دون تلكؤ.. أنا..

ولكن القاضى يقاطعه قائلا:

ـ أذكر لنا لماذا قتلتها اذن.. وكيف؟

ـ أنا لا أنسى هذا اليوم.. هو يوم فجيعتى فى أحلام حفيدتى.. رأيتها منهارة باكية.. حاولت أن أعرف منها الاسباب، ولكنها أنكرت، لم أكن أتصور أنها قد سقطت فى أحضان الخطيئة.. فوجئنا بطرقات عنيفة على الباب.. أدركت من الصوت أنه صوت تلك اللعينة هدى.. سمعتها وهى تقذفها بأفظع السباب السوقية وتتعمد اذلالها بكل الكلمات المهينة بينما أحلام تبكى فى توسل.. وكانت الطامة بالنسبة لى عندما فوجئت بها تتوعدها وتهددها بأنها سوف تذل أباها وبأن لديها شيكا موقعا منه بلا رصيد.. أحسست ببرودة جسدى، وظننت فى لحظة أننى أصبت بالشلل.. ظللت فى مجلسى ساعات طويلة أجتر آلامى، شعرت بدموعى وكأنها انقلبت الى جوفى فكانت نزيفا من الدم.

مضت لحظة سكون سيطرت على القاعة، وكأنه يتذكر ما حدث.. فنبهه القاضى قائلا:

ـ ثم بعد.

ـ وجدت نفسى اتحرك بلا ارادة.. اتجهت الى شقتها.. كانت عنيدة مكابره.. وجدت نفسى اتضاءل الى حد الانصهار أمام كلماتها اللاذعة، كانت تتحدث عن ابنى وكأنه قواد ولص.. وعن زوجته

وابنته بأفظع الصفات.. وفجأه وجدتها تحاول النيل منى أنا الآخر وبلا حياء تسبنى وتتهمنى بأننى كنت على علم بكل شىء وبأننى كنت أرتزق من وراء تصرفاتهم.. فلكزتها بعصاى هذه..

و .. رفعها باعتزاز إلى أعلى وهو يواصل صيحاته :

ـ نعم بعصاى تلك ... لكمتها بقوة فى صدرها فسقطت على الأرض وارتطمت رأسها بحافة المائدة الرخامية، ولكنى فوجئت بها تصرخ وتولول وهى تقذفنى بما هو فوق احتمالى .. فضربتها على رأسها .. نعم أنا القاتل .. لقد قتلت الخطيئة ... ولست نادماً .. و ..

جلس بهدوء وأسند رأسه على رأس أبى الهول وكأنهما يتشاوران فى حديث طال غيابه .. بينما توقف الهمس تماماً فى القاعة حتى بعد خروج هيئة المحكمة للتشاور.

كانت الدقائق ثقيلة، ومضت وكأنها تحمل فوق عقاربها هموم، وأثقال الدنيا كلها وأشرأبت الأعين عند دخول هيئة المحكمة من جديد .. وبدأ القاضى يسبق حكمه بعدة كلمات أوضح من خلالها مراعاة ظروف القاتل ثم أعلن قائلاً :

ـ حكمت المحكمة حضوريا بمعاقبة المتهم أمين عبد العزيز بخمسة عشر عاما مع النفاذ.

وتحولت كل العيون تجاه الرجل القابع فى مكانه بثبات، بينما أمتدت يد الحارس لكى توقفه استعداداً للرحيل، وما كاد يفعل حتى

سقطت العصا من تحت رأسه وسقط هو بعدها بلا حراك .. وانطلقت صيحة مدوية من الحارس :

ـ لقد مات الرجل ..

أحتبست الأنفاس فى ذهول .. لم يتحرك أحد .. الكل فى سكون وكأنهم فى إنتظار مواصلة المحاكمة .. بينما كان جسد الجد أمين ممدداً بجوار عصاه وملامح ابتسامة الرضى فوق شفتيه وكأن الموت تغافل عنها فتركها فوق شفتيه كآخر أمل له .

وفجأة دوت صرخة فى القاعة جعلت الحاضرين يفيقون من غيبوبتهم المؤقتة .. وانطلقت بشرى بعد صرختها نحو القضبان وهى تردد فى هستيريا :

ـ لا .. لا يمكن أن تموت .. لا يمكن أن يكون هذا جزاؤك .. أتسمعنى .. لقد عاهدتك .. فلا تمت وسأظل على عهدى .. هل تسمعنى .. لا تمت .. لا ..

ودفنت رأسها بين كفيها وهى تصرخ صراخاً مكتوباً حتى كسا الدمع وجهها .. شعرت بيد تربت على كتفيها برفق، وما كادت ترفع راسها حتى تجمد الدمع بين جفنيها وتشنجت نظرتها إلى عيون عمرو الذى سحب يده مضطربا .. وقال فى همس :

ـ كفى يا بشرى .. وهيا، لقد نتهى كل شىء.

تحركت بجواره وهى تقطع الممر الطويل بخطوات متزنة لا تعبر عن حقيقة ما يختلج فى صدرها، وقد تراجعت برأسها قليلاً إلى الوراء وكأنها تنفذ بنظرتها من خلال الجدران والعوائق تستكمل حديث الصمت الذى أوقفته الضوضاء والموت وحال بينها وبينه.

وقبل أن ينتهى الممر تردد عمرو يتساءل فى وجوم :

ـ هل تعرفينه.

ازدرد ريقه مرتبكاً أمام نظرتها الصامتة .. ثم أردف :

ـ لم أوتوقع أنك تعرفينه .. هل تقابلت معه من قبل ؟

أجابت من خلال تنهيدة قصيرة :

ـ وماذا يفيد الآن.

ـ كنت أسمع عنه .. أنه رجل طيب ، ولكنى حقاً مندهش لتصرفه هذا كيف وهو فى هذا العمر يفكر فى القتل .. ولماذا.

ظهرت ابتسامة باهتة فوق شفتيها ..وقالت :

ـ لا ترهق نفسك بالاندهاش .. فمازال القدر يكشف لنا كل يوم ما يثير الدهشة.

وجدها فرصة لينفذ إلى موضوع كان يضمره، فبادرها قائلاً:

ـ أخشى أن يكون عمى لا يزال غاضباً منى.

لم تجبه .. وصلاً إلى أول درجات السلم المؤدى إلى الطريق، فأعاد عليها مخاوفة مرة ثانية مما دفعها لكى تجيبه قائلة :

ـ لا تشغل بالك بهذا الأمر .. فأنت أمامك أكثر من طريق يمكنك السير عليه .. لاحقها فى الحاح :

ـ طريقى معك .. وأنت.

توقفت عن النزول وهى تقاطعه :

ـ أسمع يا عمرو .. أقسى شــىء فـى الدنيـا أن يخـدع الإنسـان نفسه. والأبشع من هذا أن يستمر فى خديعتها إذا ما أكتشف ذلك.

ـ كلامك غير واضح يا بشرى .. تعلمين كم أحبك.

واصلت هبوط السلم .. ثم قالت بهدوء :

ـ أنت لم ولن تحبنى قط.

ـ مستحيل .. ولكن الظروف هى التى ..

ومرة أخرى تقاطعه ولكن بنبرة حازمة :

ــ الظروف هى التى جعلتـك تتقن تلميحـاتك لـى بـأنك تحبنـى حتى كدت أن أصدق خيالى ، وأنت لاه فى حبـك لأحـلام.. الظـروف هى التى جعلتك تتحول عن أحلام إلـى هـدى .. ثـم الظـروف تجعلـك تعـود إلـى مـن جديـد .. ألا تـرى أنـك قد حملـت الظـروف فـوق مـا تحتمل..

ـ أنت متوترة الآن يا بشرى .. أنا لـم أعهـد فيـك هـذا التفكـير من قبل.

فسارعت فى سخرية تقول :

ـ لآنك لم تفكر فى من قبل.

بدأ الانفعال يتحرك فى صدره وهو يقول :

ـ وحبك .. وحبى .. ثم ما الذى دفعك لمساندتى .. ألست أنـت وراء حضـور المحامى .. لا تفسـرين سـر إهتمـامك بـى، سـوى أنـك تجبيننى وأنا أحبك.

ـ لقد وقفت بجانبك فى هذه الأزمة لاننى كنت مؤمنة بـبراءتك من هذه الجريمة .. ولكنك لست بريئاً من جرائم أخرى قد لا تخضـع للقانون البشرى.

ـ صدقينى يا بشرى .. أنا كرهت أحلام .. كرهتها.

أنتهيا من درجات السلم ثم التفتت إليه قائلة :

ـ صدقنـى أنـت يـا عمـرو .. القلـب الـذى عرفـت الكراهيـة الطريق إليه لن يجد الحب مكاناً فيه.

ـ لا يابشرى .. فأنا ..

ولكنه توقف عن الكلام عندما ظهرت أحـلام منصرفـة، تاركـة أباها وراءها يخطو بخطـى ذليلـة .. بـدت وكأنهـا خارجـة لتوهـا مـن قاعة للسينما وليس من قاعـة محكمـة قـد انتهـت بداخلهـا حيـاة أقـرب الناس إليها، لا أثر فى عينيها لدمعة حزن ولا مسحة من التـأثر علـى وجهها، كانت تقفز درجـات السـلم وكأنهـا تهـرب مـن شـبح يطاردهـا ويخيفها أوأنهـا علـى موعـد قـد تذكرتـه فجـأة بعـد إنشـغالها بـأحداث المحاكمة، فتركت كل شىء خلفها حتى أباها المنهار.

تعمدت وهى تتجاوزهما أن ترمقـة بنظـرة سريعة، أحـس بهـا تنفـذ إلـى صـدره كالسـهم المسـموم واضـطربـت أوصـالـه مـن صـوت بشرى وهى تقول :

ـ ألا تذهب وتتبعها ؟

ـ أرجوك يا بشرى أمنحينى الفرصة .. سأحاول أن .. ولكنهـا تقاطعه بحزم وهى توليه ظهرها منصرفة :

ـ أرجوك لا تحاول .. حتى لا تدمرنى معك ..

وقف برهة يتابع انصرافها، ثم التفت إلـى الاتجـاه الآخـر وبـلا تردد انطلق مهرولاً فى كل جانب باحثاً عن أحلام حتـى توقـف فجـأة وكاد يتوقف قلبه معه عندما رآها تستقل سيارة فارهـة يقودهـا هشـام وهى تبادلة الابتسامة. شعر بصدره يتمزق من أنفاسـه اللاهثـة وهـو متسمر فى مكانة مذهول أو حاقد .. دار بعينيه حوله فـى حيرة كأنـه يبحث لنفسه عن طريق.. أى طريق، حتى ولو كـان مشـابها للطريـق الذى أختارته أحلام لنفسها .. ولكنه لم يتحرك .. ولم يستطع، فكـانت أحاسـيس الغربـة أقـوى مـن إرادتـه .. ولـم يسـتطع، فكـانت أحاسـيس الغربة أقوى من إرادته .. حاول أن يطلق نظرتـه نحـو الطريـق اذى انطلقت عليه بشرى فلم ير شيئاً، كانت ابتعدت كثيراً عن مدى بصـره وعن آماله أيضاً .. فهى اخترقت الزحام بثبات ولم تحـاول أن تلتفـت وراءها .. كانت تتعايش مع لحظة من الماضى القريب وهـى تسـتعيد صورة الجد أمين وهو يصرخ فى المحكمة :

ـ لست نادماً .. لست نادما ..

وبطرف أصبعها أزاحـت مـن فـوق جفنهـا دمعـة طفـرت دون إرادتها، وأطلقت زفرة طويلة من رئتيها وهى تردد فى أعماقها :

ـ تراه كان يسمعنى وأنا أعاهده ..

